منظومة الأصول الثلاثة وشرحها

نَظْم وشرح
أحمـد السـنوسـي أحمـد

تقديم فضيلة الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر البراك

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ

منظومة الأصول الثلاثة وشرحها

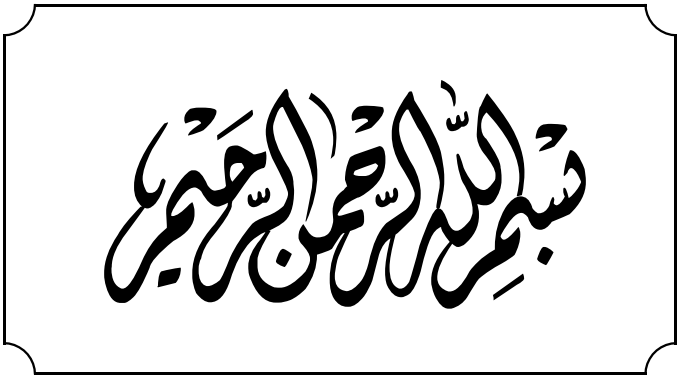
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر البرَّاك حفظه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد عبد الله ورسوله وآله وصحبه

أما بعد:

فقد سمعت نظم الشيخ أحمد السنوسي أحمد، لمتن الأصول الثلاثة، تأليف الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، فوجدت النظم وافياً بما تضمنه كلام المؤلف الإمام، فلم يفت الناظمَ منه شيءٌ، كما أن النظم كان سهلاً واضحاً مضمناً ما يقتضيه النظمُ من كلمات تضيف إلى اللفظ والمضمون حُسْناً، كما كان جارياً على أحسن أوزان بحر الرَّجَز، فجزى الله الشيخ الناظم ومؤلف الأصل خيراً على ما قدماه من بيان وتقريب هذه الأصول العظيمة التي لا بد لكل

مكلف من معرفتها، ونظراً إلى ضيق النظم عن ذكر الأدلة، رأى الناظم وفقه الله أن يشرح هذا النظم بما يبين مضمونه مع ذكر الأدلة من الكتاب والسنة كما ذكرها صاحب الأصل الإمام المجدد، وزاد الناظم في هذا الشرح ما يسره الله له من الفوائد والمعاني والاستدلال.

وقد قُرئَ عليَّ الشرحُ فألفيته كما ذكرتُ، فجزاه الله على شرحه ونظمه خيراً، ونفع به، وصلى الله على نبينا محمد.

أملاه

عبد الرحمن بن ناصر البرَّاك

مقدمة الناظم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن التوحيد هو أول دعوة الرسل، وأول واجب على المكلف، وأول مقام يقوم فيه السائرون إلى الله ﷻ، وهو الذي من أجله خُلق الخلق، وأُرسِلَتِ الرسلُ، وأُنزلتِ الكتبُ.

فلما كان بهذه المكانة وهذه المنزلة، وجب على العباد تحقيقه، والسعي في معرفته والعمل به، إذ الواجب على العبد أن يعرف ما يريد منه خالقه، وأول ما أمر الله به العبد هو توحيد الله وإخلاص العبادة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البَيِّنَة: ٥]، وكما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه

حينما بعثه النبي ﷺ حيث قال له (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله).

ولأجل ذلك أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، يبشرون من استجاب لدعوتهم، وصار من زمرتهم، بتحقيق التوحيد لله والبراءة من الشرك، وينذرون من أعرض عن توحيد الله، واستمر على شركه وغيه وضلاله كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولقد كان بنو آدم على التوحيد الذي هو دين أبيهم آدم عليه السلام ثم حدث الشرك في بني آدم بسبب الغلو في قبور الصالحين، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله فهو أول رسول أرسله الله.

ثم توالت الرسل بعد نوح عليه السلام كلهم يدعو إلى ما دعا إليه نوح عليه السلام من توحيد الله وإفراده بالعبادة، حتى ختم الله الرسل بمحمد ﷺ فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وأنزل إليه كتابه الحكيم، وهدى به الصراط المستقيم.

ولما كانت الأمم قبل هذه الأمة كلما مضى فيها نبي خلفه آخر مجدداً الدعوة إلى توحيد الله، وكانت هذه الأمة قد اختصها الله بأن جعلها آخر الأمم، وجعل نبيها آخر الأنبياء قيض الله لها أئمة هدى، يحيون سنة نبيهم كلما أماتها الناس، وينشرون دعوته في أرجاء الأرض، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى.

وفي هذه القرون المتأخرة كثر الشرك وانتشرت وسائله وذرائعه بسبب انتشار الجهل، وقلة العلم الصحيح، وجهل الناس بأهمية تحقيق التوحيد، وعدم فهم مدلول لا إله إلا الله، وهذا من شؤم أهل الكلام الذين يقررون للناس أن معنى (لا إله إلا الله) هو الإقرار بتوحيد الربوبية وأن من أقر بأن الله هو الخالق الرازق المدبر فقد حقق معنى هذه الكلمة العظيمة، وبسبب ذلك كثر الشرك في العبادة بين المسلمين، فأنعم الله على عباده بإمام من أئمة المسلمين، جاء به الله ليجدد ما اندرس من معالم هذا الدين، ويحيي ما أماته الناس من توحيد الله وسنة رسوله ﷺ، وهو الإمام العلامة المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ فقام بحق الله، ودعا إلى توحيد الله ونبذ الشرك.

ومن رحمة الله بعباده أن ألهم هذا الإمام تأليف كتب عظيمة في بيان توحيد العبادة، فألف هذه الكتب التي تقرر توحيد العبادة على طريقة القرآن والسنة بعيداً عن طرق أهل الكلام الذين يبعدون العبد عن ربه بما أحدثوا من الأقوال الباطلة، فانتشرت هذه الكتب، وذاع صيتها، وسارت بها الركبان، ونفع الله بها أمماً لا يحصون.

ومن كتبه المباركة التي انتفع بها المسلمون: كتاب (الأصول الثلاثة) الذي يشرح فيه الأصول التي يجب على كل مكلف معرفتها والعمل بمقتضاها، وهي الأصول التي يسأل عنها العبد في قبره.

فهو كتاب صغير الحجم عظيم النفع، مشتمل على أصل عظيم، حاجة العباد إليه أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

فلما رأيت الكتاب بهذه المنزلة العظيمة، لعظم محتواه، وأهمية مضمونه، أحببت أن أعقد ما انتثر من دره؛ ليكون قريباً من طلبة العلم ممن يكون حفظ النظم عليه أسهل؛ إذ كان المعهود لدى أهل العلم أن النظم أسرع لصوقاً بالذهن، وأكثر بقاء، وأقرب استحضاراً، ولله در ابن عاصم حيث يقول:

وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ أَجَلُّ مُعْتَنَى
بِهِ وَكُلُّ الخيرِ مِنْهُ يُجْتَنَى

وَالـنَّـظْـمُ مُـذْنٍ مِـنْـهُ كُـلَّ مَـا قَـصَـى
مُـذَلِّـلٌ مِـنْ مُـمْـتَـطَـاهُ مَـا اعْـتَـصَـى
فَـهْـوَ مِـنَ الـنَّـثْـرِ لِـفَـهْـمِ أَسْـبَـقُ
وَمُـقْـتَـضَـاهُ بِـالـنُّـفُـوسِ أَعْـلَـقُ

فاستعنت بالله تعالى على نظم هذا الكتاب المبارك، فجاء نظمه بعون الله قريباً، سهل الألفاظ، سائراً على ترتيب الأصل.

ثم ذيلت النظم بحاشية مختصرة تفك رموزه، وتفتح مغلقه، وتوضح معانيه، وتسهل على الطلاب فهمه بإذن الله، ناقلاً جل أدلتها من الكتاب المنظوم؛ ليظهر الامتزاج بين الأصل والفرع، مقتبساً كثيراً من فوائدها من شرح العلامة فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وحاشية العلامة ابن قاسم النجدي على الأصل، مكتفياً غالباً بما قرره هذان الإمامان في شرحيهما من دليل وتعليل.

أسأل الله أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يرزقني الإخلاص والقبول إنه سميع مجيب.

أحمد السنوسي أحمد

الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية / كلية اللغة العربية

ahsanoosi@gmail.com

المنظومة

الحمدُ للهِ على مَا أنْعَمَا ... بنعمةِ التوحيدِ خيرِ مُنْتَمَى

وَأَفْضَلُ الصَّلاةِ والتَّسْلِيمِ ... عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الكَرِيمِ

وآلِهِ الأطْهَارِ والأصْحَابِ ... مَنِ اقتَفَوْا مَنَاهِجَ الصَّوَابِ

وبعدُ إنِّي أسألُ القَبُولَا ... فِي نَظْمِيَ الثَّلاثةَ الأُصُولَا

مُؤَلَّفَ الْمُجَدِّدِ الإمَامِ ... حَامِي حِمَى الإيمانِ والإسلامِ

مُجَدِّدِ التوْحِيدِ بعدَ أنْ دَرَسْ ... وناشِرِ العلمِ لِمَنْ قَدِ اقْتَبَسْ

محمَّدِ بنِ عابدِ الوَهَّابِ ... مُتَابِعِ السُّنَّةِ والكتَابِ

مَنْ أَظْهَرَ الْحَقَّ وأَخْمَدَ البِدَعْ ... وَرَايةَ التَّوحِيدِ والهدَى رَفَعْ

المقدمة والأصل الأول

اعْلَمْ هُدِيتَ يَا أَخِي ولْتَعْرِفِ ... بِأَنَّهُ حَتْمٌ عَلَى المكَلَّفِ
تَعَلُّمٌ لأَربَعِ الْمَسَائِلِ ... العِلْمُ أُولاهَا فخُذْ مَسَائِلِي
وَحَدُّهُ مَعرِفَةُ الإلَهِ ... وَدِينِهِ نَبِيِّهِ الأَوَّاهِ
فَعَمَلٌ فَدَعْوةٌ فالصَّبْرُ ... عَلَى الأَذَى بِهِ يَكُونُ النَّصْرُ
دَلِيلُ ذَا مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ ... فِي سُورَةِ العصرِ فَخُذْ بيَانِي
قَدْ أَخْبَرَ الرَّحمنُ ذُو الجَلالِ ... بَأَنَّ كُلَّ النَّاسِ في ضَلالِ
إلَّا ذَوِي الإيمانِ والصَّلاحِ ... وَمَنْ دَعَوْا للصَّبرِ والفلَاحِ
قالَ الإمامُ الشّافعي الرَبَّانِي ... حَبَاهُ رَبِّي واسِعَ الْجِنَانِ
لَوْ لَمْ يَجِئْ رَبِّي بِحُجَّةٍ عَلَى ... عبادِهِ لِيَهْتَدُوا إلى الْعُلا
إلَّا ذِهِ السُّورَةِ لاكْتَفَوْا بِهَا ... فَاعمَلْ بما فيها وَكُنْ مُنَبِّهَا
وَقَالَ أَيضاً صَاحِبُ الصَّحِيحِ ... الحَافظُ الْجُعْفِيُّ ذُو التَّرجِيحِ
اَلْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ والأعْمَالِ ... مُسْتَشْهِداً بِآيَةِ القِتالِ
اعْلَمْ رَعَاكَ اللهُ خالقُ السَّمَا ... بِأَنَّهُ حتمٌ عَلَى مَنْ أسلَمَا
العِلْمُ بالثَّلاثِ مِنْ أمُورِ ... وَعَمَلٌ بِهَا مَدَى الدُّهُورِ
أُولى الثَّلاثِ أَنَّ رَبِّي أَوْجَدَا ... كُلَّ الوَرَى بِرَزْقِهِمْ تَفَرَّدَا
لَكِنَّهُ لَمْ يَترُكِ الخَلْقَ سُدَى ... بَلْ أَرْسَلَ الرَّسُولَ يَنْشُرُ الْهُدَى

فَمَنْ أَطَاعَهُ بِلا تَوَانِ ... فَذَاكَ سَائِرٌ إِلَى الْجِنَانِ
وَمَنْ عَصَا الرَّسُولَ وَاقْتَفَى الهَوَى ... وَعَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ حَادَ وَانْزَوَى
وَتَابَعَ الشَّيْطَانَ فيمَا يَقْصِدُ ... فَالنَّارُ دَارُهُ وَبِئْسَ الْمَوْرِدُ
وَأَنَّ رَبِّي لَيسَ يَرْضَى أَنْ يَرَى ... عِبَادَهُ قَدْ أَشْرَكُوا بَعْضَ الْوَرَى
فِي الْقَصْدِ وَالتَّعْظِيمِ وَالإِجْلالِ ... وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الأَعْمَالِ
مِمَّا بِهِ يَخْتَصُّ لَوْ نَبِيًّا ... أَوْ مُرْسَلاً أَوْ صَالِحاً وَلِيًّا
أَوْ مَلَكاً مُقَرَّباً فَكُلُّ ذَا ... مُسْتَوْجِبٌ لِلْعَبْدِ أَعْظَمَ الأَذَى
وَثَالِثُ الأُمُورِ أَنَّ مَنْ أَتَى ... تَوْحِيدَ رَبِّنَا وَكَانَ مُخْبِتاَ
للهِ مُنْقَاداً لِدِينِ أَحْمَدِ ... فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَن لا يَرْتَدِي
مَوَدَّةَ الْكُفَّارِ بَلْ يُعَادِي ... مَنْ حاربَ الرحمنَ بالإلحادِ
قَدْ جَانَبَ الإِيْمَانَ مَنْ يُوَالِي ... أئمَّةَ الفُسُوقِ والضَّلالِ
اعْلَمْ أَخِي أَرْشَدَكَ الإِلَهُ ... لدينِهِ الحقِّ الذي ارتضاهُ
أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ الأَبِ ... عنيتُ إبراهيمَ والدَ النّبِي
أَنْ تَعْبُدَ الرَّحْمَنَ خَالِقَ الْوَرَى ... وتُخْلِصَ الدينَّ لَهُ بلا امْتِرَا
بِذَاكَ أَوْصَى خَالِقُ الْعِبَادِ ... بَلْ أنشأ الوَرَى لِذَا الْمُرَادِ
كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ ... في الذَّارياتِ فاسْتَمِعْ بيَانِي
فِي قَوْلِهِ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ... وتلكَ معناهَا يُوَحِّدُونِي
لِذَلِكَ التَّوْحِيدُ صَارَ أَعْظَمَا ... أوامِرِ الإلهِ حَدُّهُ اعْلَمَا
إِفْرَادُ رَبِّ الْخَلْقِ بِالْعِبَادَةْ ... فاعملْ بِهِ تستوجِبِ السَّعَادَةْ
وأعظمُ الذنوبِ والْمَنَاهِي ... إشراكُ غيرِ اللهِ بالإلهِ
فيمَا بِهِ يختصُّ مِنْ دُعَاءِ ... أَوْ حُبٍّ اوْ تَعْظِيمٍ اوْ رَجَاءِ

فَإِنْ سُئِلْتَ مَا الأُصُولُ الَّتْ يَجِبْ ... عِرفَانُها عَلَى العبادِ فَلْتُجِبْ

أَنْ يعرفَ الإنسانُ ربَّهُ العَلِي ... والدينَ والرسولَ خيرَ من تُلِي

ورَبِّيَ اللهُ الَّذي رَبَّانَا ... بأَنْعُمٍ تَستوجِبُ الإيمَانَا

وَهْوَ الذي دوماً إليهِ أَقْصِدُ ... لا رَبَّ غيرُهُ بحقٍّ يُعْبَدُ

وَمَنْ سِوَى الإلهِ عَالَماً سُمِي ... وإِنَّنِي منهمْ فَلا تَكُنْ عَمِي

وقُلْ عرفْتُ اللهَ بالآياتِ ... كالليلِ والنهارِ ذِي العِظَاتِ

كَذَاكَ بالمخْلُوقِ كَالسَّمَاءِ ... وَالأَرْضِ وَالبِحَارِ وَالْهَوَاءِ

فَهَذِهِ وغيرُهَا دليلُ ... أَنَّ الإلهَ المنعمُ الجليلُ

مُدبِّرُ الأُمُورِ لا سِوَاهُ ... فَلا تَكُنْ ممنْ قَفَا هَوَاهُ

والرَّبُّ قَدْ يُعْنَى بِهِ المعبُودُ ... والخالقُ الْمُدَبِّرُ المحمُودُ

ثُمَّ العِبَادَةُ الَّتِي بِهَا أَمَرْ ... وَصَرْفُهَا لهُ سَعَادةُ البَشَرْ

تَعْرِيفُهَا اسْمٌ جَامِعٌ لكُلِّ مَا ... يَرْضَى بهِ الإلهُ نوعُهَا اعْلَمَا

لِاسْلامُ وَالإيمانُ وَالإِحْسَانُ ... كَذَا الدُّعَا يَحْظَى بهِ الإنسَانُ

وَالخوفُ والرَّجاءُ والْخُضُوعُ ... ورَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ خُشُوعُ

تَوَكُّلٌ وَخَشْيةٌ إِنَابَةْ ... تَعُوُّذٌ مِنْ شَرِّ مَا أَصَابَهْ

ذَبْحٌ ونذْرٌ بَعْدَهُ استِعانَةْ ... كَذَا اسْتِغَاثةٌ بهِ سُبْحَانَهْ

وَغَيْرُ ذَا مما الإلهُ قَدْ أَمَرْ ... بِصَرْفِهِ للهِ فاقتَفِ الأَثَرْ

جَمِيعُهَا لَهُ فَمَنْ يَكُنْ نَوَى ... بها سِوَى الرَّحْمنِ كَافرٌ هَوَى

الأصل الثاني
معرفة دين الإسلام بالأدلة

ثَانِي الأصُولِ فَاسْتَمِعْ بَيَانِي ... أَنْ تَعْرِفَ الإِسلامَ بالبُرْهَانِ
مَعْنَاهُ الِاسْتِسْلامُ بالتَّوْحِيدِ ... للمَالِكِ الْمُدَبِّرِ المجيدِ
وَأَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ ذَا انقِيَادِ ... بطَاعةٍ لِخَالِقِ الْعِبَادِ
مُبَارِئاً للشِّرْكِ وَالكُفَّارِ ... مُجَانِباً لِزُمرَةِ الأشرارِ
عَلَى مَرَاتِبٍ ثلاثةٍ يَجِي ... فالأولُ الإسلامُ خيرُ منهَجِ
أَرْكَانُهُ خمَسٌ عَلَيْهَا يَنْبَنِي ... رُكْنُ الشَّهَادَتَيْنِ أَوَّلاً عُنِي
مَعْنَى الشَّهَادَتَيْنِ أَنْ لَا يُعْبَدَا ... بِالحقِّ إِلَّا اللهُ مُنْزِلُ الْهُدَى
تَصْدِيقُ أَحْمَدَ النَّبِيِّ الْمُجْتَبَى ... رَسُولِ رَبِّ الخلقِ صَادِقِ النَّبَا
وَكَوْنُهُ الْمُطَاعَ فِيمَا يَأْمُرُ ... والبُعْدُ عَمَّا عَنْهُ دَوماً يَزْجُرُ
كَذا الْتِزَامُ الْخَلْقِ أَن لَا يَعْبُدُوا ... إلا بِمَا قَدْ سَنَّهُ محمدُ
إِذْ لَيْسَ يَرْضَى اللهُ إِلَّا مَا شَرَعْ ... رَسُولُهُ الدَّاعِي إلى نَبْذِ البِدَعْ
إقامَةُ الصَّلاةِ رُكْنٌ ثانِ ... فِعْلُ الزَّكَاةِ ثَالثُ الأرْكَانِ
وَرَابِعٌ صِيامُ مَنْ أَطَاعَا ... وخَامِسٌ حَجُّ الذي استَطَاعَا
ثانيهِمَا مَرْتبةُ الإيمانِ ... أَرْكَانُهُ سِتٌّ بلا نُكْرَانِ
أنْ يُؤْمِنَ العَبْدُ بخالقِ السَّمَا ... والرُّسْلِ والأمْلاكِ فاقْفُ مَنْ سَمَا

والـكُـتْـبِ كَـالْـقُـرْآنِ والـزَّبُـورِ ... ويـومِ بـعـثِ الـنـاسِ مِـنْ قُـبُـورِ
وبَـعْـدَهُ الإيـمـانُ بـالأقـدَارِ ... خَـيْـراً وَشَـراً فـاسْـتَـمِـعْ يـا قـارِي
وَالثَّالِثُ الإحْسَانُ أنْ تَسْتَحْضِرَا ... قُـرْبَ الـعَـلِـي وَأنَّـه لَـنَـا يَـرَى
وفَـوْقَ ذَا أنْ تَـعْـبُـدُو الـرَّحْـمَـانَـا ... كَـأَنَّـكُـمْ تَـرَوْنَـهُ عِـيَـانَـا
دَلِـيـلُ هَـذَا الأَصْـلِ فِـي الـقُـرْآنِ ... وفـي حَـدِيـثِ الـصَّـادِقِ الـعَـدْنـانِـي
إِذْ جـاءَهُ جـبـريـلُ يـسـتـفـتـيـهِ ... فـبَـيَّـنَ الـدِّيـنَ لِـمَـنْ يَـعِـيـهِ

الأصل الثالث

معرفة نبيكم ﷺ

والثالثُ العلمُ بخيرِ مُقْتَفَى ... محمدِ النبيِّ صاحبِ الوفَا
هُوَ ابنُ عبدِ اللهِ مَنْ قَدِ انتَمَى ... لِلنَّضْرِ جَدِّهِ الَّذِي بِهِ سَمَا
والنَّضْرُ مِنْ عدنانَ وَهْوَ ينتَمِي ... للجَدِّ إسماعيلَ صِهْرِ جُرْهُمِ
سِتُّونَ بعدَهَا ثلاثةٌ تَلِي ... عُمْرُ النبيِّ الهاشميِّ الْمُرْسَلِ
تمامَ أربعينَ جاءَهُ النَّبَا ... صلَّى عليهِ اللهُ ما هَبَّ الصَّبَا
إِذْ جاءهُ جِبريلُ وَهْوَ في حِرَا ... لِينذِرَ الكُفَّارَ في أُمِّ القُرَى
نُبِّئَ بِإِقرأْ ثُمَّ بالمدَّثِرِ ... أضحَى رسولاً فاستمِعْ وحَرِّرِ
عِشْرينَ عاماً مَعْ ثلاثٍ قَدْ قَضَى ... يَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ بَعْدَها مَضَى
لربهِ الرحمنِ خيرُ مقتفَى ... صلَّى عليهِ اللهُ نِعْمَ المصطفَى
بمكةٍ مِيلادُه ونشأتُهْ ... لطيبةٍ من بعدُ كانتْ هجرتُهْ
بَعَثَهُ الرحمنُ بِالإنذارِ ... عَنِ ارتكابِ الشركِ والأوزَارِ
يَدعُو إلى التوحيدِ والإسلامِ ... لينقذَ الوَرَى مِنَ الآثامِ
أَمضَى على هذا مِنَ الأعوامِ ... عَشْراً لِدَحْضِ الشِّركِ والأصنامِ
وَبعدَها دُعِي إلى السَّمَاءِ ... مِنْ بعدِ أنْ صلَّى بالانبياءِ
في المسجِدِ الأقصَى وبعدَ ذَا سَمَا ... في صُحْبَةِ الأمينِ قاصِدَ السَّمَا

وعَـادَ بـعـدَ الـفـرضِ لـلـصـلاةِ ... وقـدْ رَأى الـكـثـيـرَ مِـنْ آيـاتِ
صـلَّـى بِـمَـكـةٍ ثـلاثـاً صَـابِـرَا ... حـتـى أتـاهُ الأمـرُ أنْ يُـهَـاجِـرَا
إلى الـمـديـنـةِ الـتـي بِـهَـا احْـتَـمَـى ... أَصحابُهُ الكِرامُ نِعْمَ الْمُحْتَمَى
والـهـجـرةُ انـتـقـالُ شَـخْـصٍ مُـسْـلِـمِ ... مِنْ مَوْضِعِ الكفرِ البَغِيضِ الْمُظْلِمِ
إلـى بِـلادِ الأمـنِ والإيـمـانِ ... لِـيُـظْـهِـرَ الإسـلامَ بـاطْـمِـئْـنَـانِ
وفَـرْضُـهَـا بـاقٍ عَـلَـى الـعـبـادِ ... إلـى قِـيَـامِ الْـخَـلْـقِ لـلـمَـعَـادِ
كَـمَـا أتـى فـي مُـحْـكَـمِ الـتـنـزِيـلِ ... وفـي حـديـثِ الـصـادِقِ الـرسـولِ
لَـمَّـا اسْـتَـقَـرَّ الْـمُـصْـطَـفَـى بِـطَـيْـبَـةِ ... أَتَـاهُ أَمْـرُ الـلـهِ بِـالـبَـقِـيَّـةِ
مِـنْ شِـرْعَـةِ الإلـهِ كَـالـصـيـامِ ... وَالـحـجِّ والـزَّكـاةِ بِـانْـتِـظَـامِ
والأمـرِ بـالـمـعـروفِ والأذانِ ... والـنـهـيِ عَـنْ نُـكْـرٍ وعَـنْ عِـصْـيَـانِ
وغَـيـرِ ذَا مِـنْ شِـرْعَـةِ الإسـلامِ ... كَـالـبِـرِّ والإحـسـانِ لـلأرحـامِ
أَمْـضَـى عَـلَـى هَـذا مِـنَ الـزمـانِ ... عَـشْـراً يُـغَـذِّي نـخـلَـةَ الإيْـمَـانِ
بـالـعِـلْـمِ والـتَّـوحـيـدِ والـجِـهَـادِ ... مُـحَـارِبـاً لِـلـكُـفْـرِ والإلْـحَـادِ
حَـتَّـى أتـاهُ الـحـقُّ والـيـقـيـنُ ... صـلَّـى عَـلَـيْـهِ الـخـالـقُ الْـمُـعِـيـنُ
مَـضَـى لِـرَبِّـهِ الـكَـريـمِ الـبَـارِي ... مُـوَرِّثـاً لِـصَـحْـبِـهِ الأَبْـرَارِ
دِيـنـاً حَـنِـيـفـاً نَـنْـتَـمِـي إلـيـهِ ... لا خَـيْـرَ إلَّا دَلَّـنَـا عـلـيـهِ
ولَـمْ يَـكُـنْ مِـنْ شَـرٍّ الَّا حـذَّرَا ... قِـرْبَـانَـه وَفِـعْـلَـهَ كُـلَّ الـوَرَى
وَذَلِـكَ الـخـيـرُ الَّـذِي دَعَـانَـا ... لِـفِـعْـلِـهِ تَـوْحِـيـدُ مَـنْ هَـدَانـا
وكُـلُّ مَـا يُـحِـبُّـهُ الـكَـرِيـمُ ... وَيَـرْتَـضِـيـهِ الـوَاسِـعُ الـعَـلِـيـمُ
ومـا مِـنَ الـشُّـرورِ عـنـهُ يَـزْجُـرُ ... الـشـركُ بـالـلـهِ الـذي لا يُـغْـفَـرُ
وكُـلُّ شَـيْءٍ يَـكْـرَهُ الـرَّحـمـنُ ... ولَـيْـسَ يَـرْضَـى فِـعْـلَـهُ الْـمَـنَّـانُ

وَبَعْثُهُ للخلقِ أجمعينَا ... إِنْساً وجِناً فاقْتَفِ اليقينَا
فَرْضٌ عَلَى الأنامِ أَنْ يُطَاعَا ... فَلْيَلْزَمِ الْجَمِيعُ الاتِّبَاعَا
وَأكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ الَّذِي ... يَرْضَاهُ لِلإنامِ نِعْمَ مَا احْتُذِي
ومَوْتُهُ حَقٌّ كَمَا أَتانَا ... في قَوْلِ رَبِّنَا الَّذِي اجْتَبَانَا
والنَّاسُ إِنْ مَاتُوا سَيُبْعَثُونَا ... وبَعْدَ بَعْثِهِمْ يُحَاسَبُونَا
يُجْزَوْنَ بِالأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرْ ... وَمَنْ يُكَذِّبْ بِالْجَزَا فَقَدْ كَفَرْ
وأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الأَنْبِيَا ... يُبَشِّرُونَ الصَّالِحِينَ الأَوْلِيَا
ويُنْذِرُونَ زُمْرَةَ الضَّلَالِ ... عَذَابَ رَبِّ الْخَلْقِ ذِي الْجَلَالِ
وَأَوَّلُ الرُّسْلِ إِلى الْعِبَادِ ... نُوحٌ هُوَ الشَّكُورُ مَنْ يُنَادِي
لِرَبِّهِ في السِّرِّ والجِهَارِ ... في ظُلْمَةِ الليلِ وفي النِّهَارِ
وَآخِرُ الرُّسْلِ نَبِيُّنَا الوَفِي ... صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ كُلَّمَا قُفِي
وَكُلُّ أُمَّةٍ وَقَرْنٍ قَدْ خَلا ... قَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِليهِمْ مُرْسَلا
يَدْعُو إلى عِبادَةِ الرَّحمنِ ... مُحَذِّراً لِزُمْرَةِ العِصْيَانِ
عِبادةَ الطَّاغُوتِ والشَّيْطَانِ ... مُسْتَنْقِذاً لَهُمْ مِنَ النِّيرانِ
وأَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ ... الكُفْرَ بالطَّاغُوتِ ذِي العِنادِ
وأنْ يَكُونُوا آمِنُوا باللهِ ... وجَانَبُوا الذُّنوبَ والْمَنَاهِي
عنِ الإمَامِ الشَّيْخِ نَجْلِ القَيِّمِ ... حَبَاهُ ربُّنَا جَزِيلَ الأَنْعُمِ
تَعريفُهُ الطَّاغوتَ وَهْوَ كُلُّ ما ... تجاوَزَ العَبْدُ بِهِ حَداً سَمَا
مِنْ ظَالِمٍ مُطَاعٍ اوْ مَعْبُودِ ... أَوْ فَاسِقٍ مَتْبُوعٍ اوْ مَقْصُودِ
وهُمْ كَثيرٌ خَمْسةٌ رُؤُوسُهُمْ ... أَوَّلُهُمْ إِبلِيسُ مَن يَسُوسُهُمْ
وكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى الرَّحْمَنِ ... رَاضٍ بذَاكَ فَاسْتَمِعْ بَيَانِي

ومَنْ دَعَا العِبَادَ نحوَ نَفْسِهِ ... دُونَ الإلهِ فابْتَعِدْ مِنْ رِجسِهِ
ومَنْ يَكُ ادَّعَى عُلُومَ الغيبِ ... فَذَاكَ كَافرٌ بِدُونِ ريبِ
وكلُّ حَاكِمٍ بِغَيرِ مَا نزَلْ ... مِنْ عندِ ربنا فَخطْبُهُ جلَلْ
والكفرُ بالطاغوتِ مَعْ أن يُسلِمَا ... العَبْدُ للهِ الذي قدْ أَنعَمَا
هذا هُوَ الْمَعْنَى الذي احْتَوَاهُ ... مَقَالُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ
إِذْ هِيَ رأسُ الأمرِ والصَّلاةُ ... عَمُودُهُ كَمَا رَوَى الثِّقَاتُ
وذِرْوَةُ السَّنامِ في ذا الأمْرِ ... جِهَادُ أهْلِ اللهِ أهْلَ الكُفْرِ
قَدِ انتَهَى نَظْمِي لِذِي الأُصُولِ ... العِلْمِ بالإلهِ والرَّسُولِ
وديِنِهِ الإسلامِ خيرِ دينِ ... فاحْفَظْ مَقَالي تَحْظَ باليقينِ
والْحَمْدُ للهِ عَلَى تمامِ ... نَظْمِ الأصولِ واضِحَ النظامِ
وأفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ... عَلَى النبيِّ أَكْمَلِ الأنَامِ
وآلِهِ وصَحبِهِ الأطْهَارِ ... مَا اسْتَغْفَرَ العُبَّادُ بِالأَسْحَارِ
وأَسْأَلُ الرَّحمنَ حُسْنَ النِّيَّةْ ... وعِيشةً هنيئةً مرْضِيَّةْ

شرح المنظومة

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأ بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بسنة النبي ﷺ؛ حيث إنه كان يفتتح بها كتبه ﷺ كما في كتابه ﷺ إلى هرقل.

والجار والمجرور فيها يتعلق بمحذوف، فعلٍ خاص مؤخر، يقدر مناسباً للمقام الذي ذكرت البسملة مبدأً له، فمن ذكرها في مبدإ تأليفه قدر أؤلف، وهكذا.

الحمدُ للهِ على مَا أنْعَمَا

بنعمةِ التوحيدِ خيرِ مُنْتَمَى

ثنى بالحمد لله حيث حمد الله على ما أنعم به من نعمة التوحيد، والحمد هو الثناء على المحمود بصفات الكمال محبة وتعظيماً، ولا شك أن نعمة التوحيد هي أعظم نعمة في هذه الدنيا ينعم الله بها على العبد؛ لأنه به يكون الفوز برضا الرحمن ودخول الجنة، والنجاة من النيران، فيجب على العبد أن يحمد الله على هذه النعمة، وأن يتعهدها خوفاً عليها؛ لأن

الأعمال بالخواتيم، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

فالواجب على العبد إذا أنعم الله عليه بالتوحيد، أن يشكر نعم الله، ويسأل الله المزيد،ويتضرع إلى الله أن لا يزيغ قلبه بعد إذ هداه.

وَأَفْضَلُ الصَّلاةِ والتَّسْلِيمِ
عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الكَرِيمِ
وآلِهِ الأَطْهَارِ والأَصْحَابِ
مَنِ اقْتَفَوْا مَنَاهِجَ الصَّوَابِ

ثم صلى وسلم على النبي ﷺ، ومعنى صلاة العبد على النبي أن يطلب أن يصلي الله على النبي ﷺ، وصلاة الله على نبيه ﷺ هي: كما قال أبو العالية فيما رواه عنه الإمام البخاري في صحيحه: ثناؤه على عبده في الملإ الأعلى[1].

والتسليم: الدعاء بالسلام، والسلام هو: الأمن والسلامة من العيوب والنقائص.

والنبي: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، اشتقاقه من النبوة

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

بمعنى الرفعة، أو من النبأ بمعنى الخبر، والمصطفى: المختار.

ثم أتبع الصلاة على النبي ﷺ بالصلاة على الآل والصحب.

وآل النبي ﷺ في مقام الدعاء هم أتباعه من أمته ﷺ سواء كانوا من أقاربه أم لا، على الصحيح.

والصحب: جمع صاحب كركب وراكب، والصحابي: كما ذكر ابن حجر رحمه الله في النخبة هو: من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك ولو تخللت ردة في الأصح[1].

وصحابته ﷺ هم خير هذه الأمة بعد نبيها، فواجب على المسلم محبتهم والترضي عنهم وكف لسانه عن الخوض فيما وقع بينهم، فقد أثنى الله عليهم في كتابه في مواضع كثيرة وأخبر أنه رضي عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

وأثنى عليهم النبي ﷺ، وهم حماة الدين وهم الذين نقلوا لنا هذا الدين وبذلوا في سبيل نشره الغالي والنفيس، وهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض

(١) نخبة الفكر مطبوع ضمن كتاب سبل السلام: (٢٣٠)، دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان)[1].

فالواجب على العبد أن يحبهم وأن يدافع عنهم، وأن لا يخوض فيما خاض فيه من أزاغ الله قلبه مما جرى بينهم، بل يكف لسانه، ويكون قلبه سليماً لأصحاب رسول الله ﷺ.

وبعدُ إنِّي أسألُ القَبُولَا
فِي نَظْمِيَ الثَّلاثةَ الأُصُولَا
مُؤَلَّفَ الْمُجَدِّدِ الإمَامِ
حَامِي حِمَى الإيمانِ والإسلامِ
مُجَدِّدِ التوْحِيدِ بعدَ أنْ دَرَسْ
وناشِرِ العلمِ لِمَنْ قَدِ اقْتَبَسْ
محمَّدِ بنِ عابدِ الوَهَّابِ
مُتَابِعِ السُّنَّةِ والكتَابِ
مَنْ أَظْهَرَ الْحَقَّ وأَخْمَدَ البِدَعْ
وَرَايةَ التَّوحِيدِ والهدَى رَفَعْ

في هذه الأبيات يذكر أنه يسأل الله تعالى قبول هذا العمل الذي هو نظم هذا الكتاب المبارك، إذ إن العمل إذا لم يكن

(١) متن العقيدة الطحاوية ص: ٢٩، نشر دار ابن حزم الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

مقبولاً عند الله فإن صاحبه لا ينتفع به نسأل الله أن لا يجعل أعمالنا وبالاً علينا.

ثم بين أن هذا النظم هو نظم لكتاب الأصول الثلاثة الذي ألفه الإمام المجدد رافع راية الحق والتوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

والإمام محمد بن عبد الوهاب هو الإمام العلامة والمجاهد الصابر والداعي إلى الله على بصيرة والمجدد لدين الله في القرن الثاني عشر من هجرة النبي ﷺ الشيخ: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان المشَرَّفي التميمي النجدي.

ولد في العيينة سنة: (١١١٥هـ)، ونشأ في بيت علم، وصلاح، وشرف، حفظ القرآن صغيراً ثم جد في طلب العلم، فقرأ الفقه والتفسير والحديث على أبيه وعلماء بلده.

وعكف على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، خصوصاً كتب العقيدة.

ثم علت به همته فرحل في طلب العلم فسافر إلى علماء الحرمين وعلماء الأحساء وعلماء البصرة في العراق.

ثم رجع إلى بلده وعزم على القيام بالدعوة إلى توحيد الله ونشر العقيدة الصحيحة التي كان عليها محمد ﷺ وأصحابه،

فأوذي في الله وحورب من جهات كثيرة، ولكنه صبر وصابر واستعان بربه، فنصره الله وانتشرت دعوته وانتفع بها الناس، وما زال صابراً محتسباً يدعو إلى الله تعالى حتى توفاه الله سنة: (١٢٠٦) من الهجرة النبوية.

فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته

المقدمة
والأصل الأول

اعْـلَـمْ هُـدِيـتَ يَـاأَخِـي ولْـتَـعْـرِفِ
بـأَنَّـهُ حَـتْـمٌ عَـلَـى الـمـكَـلَّـفِ
تَـعَـلُّـمٌ لأَربَـعِ الْـمَـسَـائِـلِ
الـعِـلْـمُ أولاهَـا فـخُـذْ مَـسَـائِـلِـي

قوله: اعلم أمر من العلم، أي: كن متهيأً ومتفهما لما يلقى إليك من العلوم، والعلم حكم الذهن الجازم المطابق للواقع.

وكلمة (اعلم) يؤتى بها لتنبيه المخاطب على أهمية ما يأتي بعد ذلك؛ ليستجمع ذهنه ويفرغ قلبه؛ لتلقي ما يرد عليه، ولا تكون إلا حيث تذكر الأمور المهمة التي ينبغي للمتعلم أن يصغي إليها، ولا شك أن ما يأتي بعدُ من المسائل المذكورة في هذا الكتاب حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام، ويعتنى به أشد الاعتناء؛ لأنه اشتمل على الدين كله.

وقوله (هُدِيت) دعاء لك بالهداية، فهي جملة خبرية لفظاً طَلَبية معنى، والحتم: الواجب.

والواجب عند العلماء على ضربين: واجب عيني يجب على كل فرد الإتيان به، وواجب كفائي يسقط بفعل البعض، وما هنا من القسم الأول الذي يجب على كل مكلف أن يحصله ويعمل به.

والتعلُّم تفعُّلُ من العلم، وهو: تحصيل العلم ومعاناته، والمسائل جمع مسألة وهي: مطلوب خَبَرِي يبرهن عليه في العلم.

والمعنى: أنه يجب وجوباً عينيّاً على كل مكلف ذكراً كان أو أنثى حراً أو عبداً أن يتعلم هذه المسائل الأربعة ؛ لأن بها نجاته من الخسران، وسعادته وفوزه برضا الرحمن.

وأول هذه المسائل: العلم، والمراد به هنا معرفة الهدى بدليله، وهو العلم الشرعي الذي تفيد معرفته ما يجب على المكلف من أمر دينه؛ إذ العلم إذا أُطلِق في نصوص الشارع فإنما المراد به علم الشرع الذي جاء به محمد ﷺ.

والعلم الشرعي الواجب المعرفة منه ما تجب معرفته على كل أحد، ومنه ما تكون معرفته من فروض الكفايات التي يكفي قيام البعض بها.

فيجب على كل مكلف أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه مما لا يسعه جهله مثل توحيد الله والصلاة والصيام ونحو ذلك مما هو معلوم فرضه من الدين بالضرورة.

وسيأتي بيان المراد من العلم في البيت الذي بعد هذا

وَحَـــدُّهُ مَـــعـــرِفَـــةُ الإِلَـــهِ

وَدِيـــنِـــهِ نَـــبِـــيِّـــهِ الأَوَّاهِ

ذكر في هذا البيت المقصود من العلم السابق ذكره فبين أن المراد بالعلم هو: معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة ؛ إذ هذه المعرفة هي العلم الحقيقي الذي يجب على العبد تحصيله والعمل به.

ومعرفة الله تعالى تكون بما تعرف به إلى عباده في كتابه وسنة رسوله من أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على وحدانيته، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وما أرشد إليه من التفكر والتدبر في آياته الكونية كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذّاريَات: ٢٠-٢١].

ولا يكون الإنسان على حقيقة من دينه إلا بعد العلم بالله سبحانه وتعالى.

ومعرفة نبيه ﷺ من العلم الواجب تحصيله ؛ لأنه الواسطة

بين الله وعباده وهو المبلغ عن الله وهو الذي أمرنا الله بطاعته واتباعه في كل ما شرع فلا يرضى الله من الدين إلا ما شرعه على لسان رسوله إذ هو المبين لمراد الله فمعرفته فرض على كل مكلف وأحد مهمات هذا الدين.

والمراد بمعرفته ﷺ هنا المعرفة التي تستلزم قبول ما جاء به عن الله وتصديقه في أخباره، وطاعته في ما يأمر به والكف عن ما نهى عنه، وعدم الابتداع في دينه والاكتفاء بشرعه ﷺ، فمن لم يكتف بشرعه ﷺ فهو في ضلال وخسارة.

والثالث من العلم الواجب تعلمه معرفة دين الإسلام الذي تعبد الله به عباده بالأدلة من الكتاب والسنة، فلا مدخل لغيرهما في تعيين مراد الله من عباده بل الأمر في ذلك إلى الله ورسوله.

ودين الإسلام هو الدين الذي لا يرضى الله غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، وهو الذي تعبد الله عباده به.

وقوله: الأواه، هو: كثير التضرع والدعاء، والتأوه التضرع إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التّوبَة: ١١٤].

والعلم الواجب تعلمه بمعناه السابق شرحه لا يناله العبد إلا بالنظر في كتاب الله وصحيح سنة رسوله ﷺ وتفهم معانيهما من

خلال فهم السلف الصالح والأئمة الموثوق بعلمهم وفهمهم، فلا ينبغي للعبد أن يأخذ فهمه للقرآن والسنة من كل من تكلم في ذلك أو ادعى المعرفة والعلم فغالب هؤلاء هم ممن يأخذون علومهم من مصادر غير صحيحة ويعتمدون على طرق للاستدلال غير مشروعة، وسيأتي تفصيل القول في أصول المعرفة الثلاثة في مواضعه من هذا النظم مع بيان أدلتها.

فَعَمَلٌ فَدَعْوةٌ فالصَّبْرُ
عَلَى الأَذَى بِهِ يَكُونُ النَّصْرُ

ذكر في هذا البيت بقية المسائل التي يجب تعلمها وهي العمل بالعلم، ثم الدعوة إليه، ثم الصبر على الأذى فيه.

أما العمل بالعلم فهو المرتبة الثانية بعد حصول العلم، فالعبد إذا أنعم الله عليه بالعلم السابق ذكره وجب عليه أن يعمل به؛ إذ العمل هو ثمرة العلم، والمقصود منه، فالعلم الشرعي مقصود لذاته ومقصود لغيره، فهو بمنزلة الشجرة، والعمل بمنزلة الثمرة.

فالذي لا يعمل بعلمه لا ينتفع به، بل يكون علمه حجة عليه، ويكون الجاهل خيراً منه، وهو أحد الثلاثة الذين أخبر النبي ﷺ أنهم أول من تسعر بهم النار.

والذي لا يعمل بعلمه يكون قد شابه اليهود الذين غضب الله عليهم، وخالف صراط الذين أنعم الله عليهم.

والمراد بالعمل العمل الصالح الذي استوفى شرطي القبول اللذين هما الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لمحمد ﷺ، أما إن فقد أحد الشرطين فإن العمل مردود على صاحبه غير مقبول منه قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فإن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة.

فالمبتدع الذي يبتدع في دين الله لا يحصل من عمله على طائل، والمشرك الذي يشرك بالله لا يقبل الله منه هذا العمل فإن الشرك محبط للعمل.

والمرتبة الثانية: الدعوة إلى هذا العلم والخير فإذا حصل للعبد بتوفيق الله تعالى العلم بالإسلام والعمل به فالواجب عليه حينئذ أن يسعى في الدعوة إلى هذا الخير الذي أنعم الله عليه به كما هو طريقة الرسل وأتباعهم، فإنه ما من نبي بعث إلى قومه إلا وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك والبراءة منه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فيجب على العبد أن يقتدي بالرسل في ذلك ويدعو إلى توحيد الله ومحاربة الشرك وما يفضي إليه من الوسائل والذرائع، ويبدأ بالأهم فالأهم، وأهم شيء يبدأ به هو توحيد الله، كما جاء في حديث بعثه ﷺ معاذاً إلى اليمن حيث أمره أن يبدأ في الدعوة بتوحيد الله وأن لا ينتقل منه إلى غيره إلا بعد أن يطيعوه فيه.

والدعوة إلى الله وإلى توحيده هي من أعظم القربات وأجل الطاعات، ويكفي فيها أنها وظيفة الرسل الذين هم أفضل الخلق وأكرمهم عند الله، ومن الأدلة على فضل الدعوة إلى الله قوله ﷺ لعلي **(لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)**[1]، وجاء عنه ﷺ **(من دل على خير فله مثل أجر فاعله)**[2].

والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى لها شروط، فمن شروطها:

الإخلاص لله سبحانه وتعالى بأن لا يكون قصده من دعوته

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ص: ٧٢١-٧٢٢، رقم الحديث ٢٩٤٢، وكذلك في كتاب المناقب: باب مناقب علي رضي الله عنه ص: ٩١٢، رقم الحديث: ٣٧٠١، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل علي رضي الله عنه ص: ١٣١١، رقم الحديث: ٢٤٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة: باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله ص: ١٠٥٠، رقم الحديث ١٨٩٣.

الحصول على جاه أو منصب أو رياسة أو حظ دنيوي فإن الدعوة إلى الله سبحانه عبادة من العبادات يشترط لقبولها ما يشترط في غيرها من العبادات فالواجب على العبد أن يدعو إلى ربه ممتثلاً أمره راجياً ثواب ذلك عند الله محتسباً أمره إلى الله كما هو حال الإنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

ثانياً: القدوة الحسنة بأن يكون عاملاً بما يدعو إليه مظهراً ذلك في حياته وسلوكه ممتثلاً ما يدعو إليه من الأوامر مجتنباً ما يحذر عنه من النواهي، فلا يخالف قوله فعله ولذلك قدم العمل على الدعوة؛ لأن الدعوة ما لم تقترن بالعمل فإنها لا تثمر؛ إذ فاقد الشيء لا يعطيه، والناس من شأنهم سرعة الاستجابة لمن يطابق قوله فعله والثقة بما يأتي به، وقد حذر الله من يأمر بشيء ويأتي غيره، حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: ٢-٣]، وقد جاء الوعيد الشديد لمن يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه.

ثالثاً: البدء بالأهم فالأهم، فيقتدي بالمنهج النبوي في ذلك مقدماً الأهم فالأهم فلا يبتدئ بشيء غيره أهم منه، وأهم ما يبدأ به الداعي في دعوته هو توحيد الله سبحانه وصرف العبادة

له دون غيره سبحانه، فإن سائر الأعمال مبنية على توحيد الله فهو شرطها المصحح لها فإن الله لا يقبل العمل إلا من أهل التوحيد الذين أخلصوا الدين له سبحانه، ومن أصرح الأدلة على أولية التوحيد في الدعوة حديث بعثه ﷺ معاذا إلى اليمن حيث قال له: (فليكن أول ما تدعوهم شهادة أن لا إله إلا الله)[1]، ففيه البدء بالتوحيد في الدعوة وعدم الانتقال عنه إلى غيره إلا بعد تحقيقه.

رابعاً: الحكمة: والحكمة هي معرفة الحق والهدى والقول به وإصابة الحق في القول والعمل، ولا يحصل ذلك إلا بفقه الكتاب والسنة والاقتداء بالنبي ﷺ في كل شيء فمن كان مقتبساً علمه من مشكاة النبوة، ونور الوحي، فإن الحكمة تجري على لسانه، والناس يتقبلون قوله، ويتأثرون به، بخلاف من يأخذ علمه من عقول الرجال وآراءهم ومناظراتهم فإن ذلك لا يجدي شيئاً بل كله قسوة للقلب وبعد عن الله.

فالواجب على الشخص أن لا يأخذ علمه إلا من أئمة الهدى الذين يسيرون على منهاج النبوة، وأن يبتعد عن أولئك

(١) أخرجه البخاري في الصحيح في كتاب التوحيد: باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تعالى ص: ١٨٢٠، رقم الحديث: ٧٣٧٢، ومسلم في الصحيح في كتاب الإيمان: باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ص: ٣٠، رقم الحديث ١٩.

الذين أزاغ الله قلوبهم والذين يحكمون عقولهم على كلام الله وكلام رسوله ﷺ فما وافق عقولهم أخذوه وما خالفها ردوه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية:

مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ خَيْرٌ غَيْرَ مَا
أَخَذُوهُ عَمَّنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
وَالْكُلُّ بَعْدُ فَبِدْعَةٌ أَوْ فِرْيَةٌ
أَوْ مَحْضُ تَشْكِيكٍ وَرَأْيُ فُلانِ[1]

والمرتبة الرابعة من هذه المسائل هي الصبر على الأذى فيه وذلك أن من قام بدين الإسلام ودعا إليه فقد قام مقام الرسل، وتحمل أمراً عظيماً، وقصد أن يحول بين الناس وبين شهواتهم واعتقاداتهم الباطلة، وما اعتادوه من الأعراف والخصال المخالفة لأمر الله ورسوله، فلا بد أن يواجه بالأذى والعدوان، فالواجب عليه أن يتحلى بالصبر ويقتدي برسل الله في ذلك مفوضاً أمره إلى الله.

فالصبر من أعظم خصال الإيمان ومن صفات المرسلين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص: ٣٠، طبعة دار عالم الفوائد ضمن مجموعة ابن القيم التي أشرف على إخراجها العلامة الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ / الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ.

حَتَّىٰٓ أَنَهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وبه تستقيم حياة المسلم؛ لأنه ما دام يدعو إلى الله فلا بد أن يعتريه من أذى الناس شيء كثير، فالواجب عليه أن يكون صابراً وقد أمر الله عز وجل بالصبر في كتابه في مواضع كثيرة وحث عليه ﷺ في سنته.

دَلِيلُ ذَا مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ
فِي سُورَةِ العصرِ فَخُذْ بيَانِي
قَدْ أَخْبَرَ الرَّحمنُ ذُو الجَلالِ
بَأنَّ كلَّ النَّاسِ في ضَلالِ
إِلَّا ذَوِي الإيمانِ والصَّلاحِ
وَمَنْ دَعَوْا للصَّبرِ والفَلَاحِ

ذكر في هذه الأبيات دليل وجوب تعلم ما سبق من المسائل الأربع، وهو ما جاء في هذه السورة العظيمة والتي اشتملت على بيان ما به نجاة الإنسان وسعادته وهي قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿وَٱلۡعَصۡرِ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

والمعنى يقسم الله تعالى بالعصر وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل الأرباح والأعمال الصالحة للمؤمنين، وزمن الشقاء للمعرضين المكذبين؛ لما فيه من العبر والعجائب لمن اعتبر وتدبر.

والمقسم عليه هو ما ذكر في هذه السورة وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العَصر: ٢] فدل على أن كل إنسان في خسار في مسعاه وعمله إلا من استثنى الله في هذه السورة، وهو من قام بهذه الخصال التي هي: الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

ففيه ما يوجب الجد والاجتهاد في معرفة الإيمان والتزامه، وفيه الحض على العلم فإنه لا يمكن الإيمان ولا العمل إلا بالعلم؛ إذ العلم شرط للعمل ومصحح له وفيه الحث على العمل فإنه ثمرة العلم ونتيجته.

والفلاح: هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

قَالَ الإمامُ الشّافعي الرَبَّانِي
حَبَاهُ رَبِّي واسِعَ الْجِنَانِ
لَوْ لَمْ يَجِئْ رَبِّي بِحُجَّةٍ عَلَى
عبادِهِ لِيَهْتَدُوا إلى الْعُلا
إِلَّا ذِهِ السُّورَةِ لاكْتَفَوْا بِهَا
فَاعمَلْ بما فيها وَكُنْ مُنَبِّهَا

ذكر في هذه الأبيات ما يدل على عظمة هذه السورة وهو ما ذكره عنها الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ من أن الله تعالى لو لم ينزل على

عباده حجة في بيان طريق النجاة وسبيل الفلاح إلا هذه السورة لوسِعَتهم.

قال في الأصل، قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (لوما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لَكَفَتْهم)[1]، وذلك لعظم شأنها مع شدة اختصارها، وقد اشتملت على الخير والهدى كله، فإنها دلت على العلم، والعمل، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني، فهي حقيقة بأن يقال فيها ما قاله هذا الإمام.

والشافعي: هو محمد ابن إدريس القرشي الإمام المشهور، أحد الأئمة الأربعة، ومناقبه كثيرة، توفي رحمه الله تعالى سنة أربع ومائتين .

وقوله في النظم: (ذِهِ) اسم إشارة للمؤنث.

وَقَالَ أَيضاً صَاحِبُ الصَّحِيحِ
الحَافظُ الْجُعْفِيُّ ذُو التَّرجِيحِ
اَلْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ والأعْمَالِ
مُسْتَشْهِداً بِآيَةِ القِتالِ

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره: (١/ ٢٠٣، ٨/ ٤٧٩) طبعة دار طيبة، الطبعة الثانية: (١٤٢٠هـ) تحقيق سامي سلامة.

ذكر في هذين البيتين ما يدل على وجوب ترتيب هذه المسائل الأربع بحيث يقدم العلم على العمل، فلو قدم العمل على العلم لم يصح، فقد ذكر الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الصحيح في كتاب العلم باباً ترجم له بقوله: (باب العلم قبل القول والعمل) ثم ذكر قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمَّد: ١٩]، فبدأ بالعلم(١).

ففي الآية دلالة على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل، كما استدل بها البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على صحة ما ترجم به، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه بأمرين: العلم ثم العمل، والمبدوء به في الآية هو العلم، وذلك في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]، ثم أعقبه بالأمر بالعمل في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غَافر: ٥٥]، فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن العلم شرط في صحة القول والعمل، ؛ لأنه مصحِّح النية التي هي مصححة للعمل.

والإمام البخاري هو الإمام محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي أمير المؤمنين في الحديث، صاحب الصحيح الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله، توفي رحمه الله تعالى سنة ست وخمسين ومائتين من الهجرة.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم: باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]، فبدأ بالعلم، ص:٢٩.

وآية القتال يريد بها الآية السابق ذكرها، والتي هي في سورة محمد وسورة محمد من أسمائها سورة القتال.

اعْلَمْ رَعَاكَ اللهُ خالقُ السَّمَا
بِأَنَّهُ حتمٌ عَلَى مَنْ أسلَمَا
العِلْمُ بالثَّلاثِ مِنْ أمُورِ
وَعَمَلٌ بِهَا مَدَى الدُّهُورِ

يذكر في هذين البيتين وما يليهما من أبيات المسائلَ الثلاث التي يجب على كل مسلم ومسلمة تعلمها والعمل بها فقوله: اعلم أمر بالعلم كما سبق، وأتى به لعظم شأن هذه المسائل الثلاث، وقوله: (رعاك الله خالق السما) دعاء لك بالرعاية والحفظ فهي خبرية لفظاً إنشائية معنى.

والمعنى أنه يجب على كل من أسلم من المكلفين ذكراً كان أو أنثى حراً أو عبداً وجوباً عينياً لا يعذر بتركه أن يتعلم هذه المسائل الآتية الذكر ويعمل بمدلولها فإن العمل هو ثمرة العلم، وإلا فمجرد العلم والمعرفة لا يفيد شيئاً وإنما يراد العلم للعمل

أُولى الثلاثِ أَنَّ رَبِّي أَوْجَدَا
كُلَّ الوَرَى بِرَزْقِهِمْ تَفَرَّدَا
لَكِنَّهُ لَمْ يَترُكِ الخَلْقَ سُدَى
بَلْ أَرْسَلَ الرَّسُولَ يَنْشُرُ الْهُدَى

المسألة الأولى من المسائل الثلاث هي: أن الله تعالى خلقنا بعد أن لم نكن شيئاً لعبادته ورزقنا النعم لنستعين بها على ما خلقنا من أجله ولم يتركنا مهملين معطلين لا نؤمر ولا ننهى قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القِيَامَة: ٣٦]، بل خلقنا لنفرده بالعبادة دون غيره، وأرسل إلينا نبيه محمداً ﷺ مبشراً ونذيراً، وهذا أصل عظيم من أصول الدين يجب اعتقاده والعمل بمقتضاه.

فَمَنْ أَطَاعَهُ بِلا تَوَانِ
فَذَاكَ سَائِرٌ إِلَى الْجِنَانِ

لأن طاعة الرسول من طاعة الله قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ٨٠]، وقد أمرنا الله تعالى بطاعة نبيه، ونهانا عن معصيته في مواضع كثيرة من كتابه، فمن أطاع الرسول فقد استوجب رضا الله واستحق دخول الجنة.

وَمَنْ عَصَا الرَّسُولَ وَاقْتَفَى الهَوَى
وَعَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ حَادَ وَانْزَوَى
وَتَابَعَ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَقْصِدُ
فَالنَّارُ دَارُهُ وَبِئْسَ الْمَوْرِدُ

أما من عصى الرسول واتبع هواه وأطاع شيطانه فيما يريد واقتفى سبل الغواية والضلال فقد توعده الله بنار جهنم أعاذنا الله

منها قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النِّساء: ١٤].

والدليل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المُزّمل: ١٥-١٦].

وَأَنَّ رَبِّي لَيْسَ يَرْضَى أَنْ يَرَى
عِبَادَهُ قَدْ أَشْرَكُوا بَعْضَ الْوَرَى
فِي الْقَصْدِ وَالتَّعْظِيمِ وَالإِجْلالِ
وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الأَعْمَالِ
مِمَّا بِهِ يَخْتَصُّ لَوْ نَبِيًّا
أَوْ مُرْسَلاً أَوْ صَالِحاً وَلِيًّا
أَوْ مَلَكاً مُقَرَّباً فَكُلُّ ذَا
مُسْتَوْجِبٌ لِلْعَبْدِ أَعْظَمَ الأَذَى

المسألة الثانية: أن الله تعالى لا يرضى من عباده أن يشركوا به في العبادة أحداً من خلقه كائناً من كان ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو ولياً صالحاً فضلاً عن غير هؤلاء من المخلوقات كالأشجار والأحجار والقبور ونحوها، وذلك أنه هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، ولأن صرف العبادة لغير الله

كفر، والله لا يرضى لعباده الكفر: قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزُّمَر: ٧]، والله إنما يرضى لعباده الإسلام، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: ٣].

فمن دعا نبياً من الأنبياء أو ولياً من الأولياء، أو ملكاً من الملائكة، أو استغاث به في جلب نفع أو دفع ضر فقد أشرك بالله في عبادته، وصرف العبادة لغير الله، فضلاً عمن يدعو الأشجار والأحجار ونحوها، فإذا كان الله لا يرضى بعبادة أكرم الخلق عنده وأحبهم إليه فغيرهم لا تجوز عبادته بطريق الأولى؛ لأن العبادة حق لله وحده لا يجوز صرفها لغيره، فكما أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير فكذلك هو المستحق للعبادة وحده دون غيره،

والدليل على هذه المسألة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجنّ: ١٨].

فهذا نهي عام لجميع الإنس والجن أن يعبدوا مع الله غيره سواء كان المدعو صنماً أو نبياً أو ولياً أو ملكاً أو غير ذلك مما يدعى من دون الله، فـ (أحداً) نكرة في سياق النفي شملت جميع ما يعبد من دون الله، فإن دعاء غير الله هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، فمن مات وهو يدعو غير الله فإن مصيره إلى النار المؤبدة كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المَائدة: ٧٢]

وَثَالِثُ الأُمُورِ أَنَّ مَنْ أَتَى
تَوْحِيدَ رَبِّنَا وَكَانَ مُخْبِتاَ
للهِ مُنْقَاداً لِدِينِ أَحْمَدِ
فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَن لا يَرْتَدِي
مَوَدَّةَ الْكُفَّارِ بَلْ يُعَادِي
مَنْ حاربَ الرحمنَ بالإلحادِ
قَدْ جَانَبَ الإِيْمَانَ مَنْ يُوَالِي
أئِمَّةَ الفُسُوقِ والضَّلالِ

المسألة الثالثة من المسائل التي يجب على المكلف معرفتها والعمل بمقتضاها أن من أطاع الرسول فيما أمر به واجتنب ما نهى عنه ووحد الله في عبادته لم يجز له أن يوالي من حاد الله ورسوله من أهل الكفر والشرك بالله، بل الواجب عليه أن يعاديه أشد المعاداة، فقد حرم الله على المسلمين موالاة الكفار ومحبتهم، ولو كان ذلك الكافر الذي يحاد الله ورسوله من أقرب الناس إلى المسلمين ؛ فإنه ليس بين مسلم وكافر مودة ومحبة؛

فإن الله سبحانه قطع التواصل والتوارث والمحبة وغيرها من أنواع القرابة بين المسلمين والكفار.

فالقرب الحقيقي إنما هو في الدين لا في النسب، فالمسلم أخو المسلم وإن كان بعيد الدار، والكافر وإن كان قريباً في النسب فهو عدو في الدين، فيحرم على المسلم موالاة الكفار، بل يجب أن يبغضهم في الله ويعاديهم ؛ لأنهم أعداء الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [المُمتَحنَة: ١].

والدليل على هذا الأصل العظيم قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجَادلة: ٢٢]

اعْـلَـمْ أَخِـي أَرْشَـدَكَ الإِلَـهُ
لِـديـنِـهِ الـحـقِّ الـذي ارتـضـاهُ
أَنَّ الْـحَـنِـيـفِـيَّـةَ مِـلَّـةَ الأَبِ
عـنـيـتُ إبـراهـيـمَ والـدَ الـنّـبِـي

أَنْ تَعْبُدَ الرَّحْمَنَ خَالِقَ الْوَرَى

وتُخْلِصَ الدينَّ لَهُ بلا امْتِرَا

في هذه الأبيات بيان الحنيفية وأنها شريعة إبراهيم عليه السلام وطريقته، وهي كذلك طريقة الأنبياء بعده، وهي عبادة الله وحده مخلصاً له الدين، والإخلاص حب الله وإرادة وجهه بمعنى أن يقصد المرء بعبادته وجه الله والفوز برضاه والنجاة من عذابه، لا يدعو معه أحداً لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ولا ولياً صالحاً، بل يكون قصده وجه الله وامتثال أمره سبحانه وتعالى، فهذا هو إخلاص الدين لله.

وعبادة الله بالإخلاص هي ملة إبراهيم التي ذكرت في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: ١٢٣].

والحنيف المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد، اشتقاقه من الحنف، وهو الميل، وهو المستمسك بالإسلام المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه.

وإبراهيم عليه السلام هو خليل الرحمن، وهو أبو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما تكرر ذكر منهجه كثيراً ؛ للاقتداء به عليه الصلاة والسلام

بِـذَاكَ أَوْصَـى خَـالِـقُ الْـعِـبَـادِ
بَـلْ أنـشـأ الـوَرَى لِـذَا الْـمُـرَادِ
كَـمَـا أَتَـى فِـي مُـحْـكَـمِ الْـقُـرْآنِ
فـي الـذَّاريـاتِ فـاسْـتَـمِـعْ بـيَـانِـي
فِـي قَـوْلِـهِ إِلَّا لِـيَـعْـبُـدُونِـي
وتـلـكَ مـعـنـاهَـا يُـوَحِّـدُونِـي

ذكر في هذه الأبيات الحكمة من خلق الجن والإنس وأن الحنيفية التي هي ملة إبراهيم والتي تفسيرها: أن تعبد الله مخلصاً له الدين هي التي أمر الله بها عباده في كتابه وعلى لسان رسوله.

فالقرآن كله أمر بالتوحيد، وإخبار عن جزاء أهل التوحيد، ونهي عن ضد التوحيد وهو الشرك وما يخل بالتوحيد، وإخبار عن جزاء أهل الشرك.

والله جل وعلا ما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا لبيان هذا المعنى العظيم، وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده دون سواه، بل ما خلق الله الخلق إلا لتحقيق هذا المعنى.

فعبادة الله وحده هي الحكمة من خلق الجن والإنس كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، ومعنى (يعبدون): يوحدون، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: كل موضع في القرآن: (اعبدوا الله) فمعناه: (وحدوا الله)[1]، وجاء أيضاً: عبادة الله: توحيد الله.

إِنْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ اعْبُدُوا
اللهَ فَالْمُرَادُ مِنْهُ وَحِّدُوا
عِبَادَةُ الرَّحْمَنِ أَنْ يُوَحَّدَا
وَضِدُّهَا الإِشْرَاكُ فَاقْتَفِ الْهُدَى[2]

فالله عز وجل لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتركهم هملاً، بل خلقهم لهذه الحكمة العظيمة، وأرسل إليهم الرسل يبينون لهم ما خلقوا من أجله ويدعونهم إلى تحقيق هذا الأمر الذي له خلقوا، ولكن كثيرا من الناس ضلوا عن سواء السبيل، فلا يعقلون الحكمة من خلقهم

لِذَلِكَ التَّوْحِيدُ صَارَ أَعْظَمَا
أوامِرِ الإلهِ حَدُّهُ اعْلَمَا

(١) ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: ٢١]. انظر تفسير ابن كثير: (١/ ١٩٥).

(٢) هذان البيتان ليسا من النظم وهما مما زدته عليه أثناء الشرح عاقداً بهما ما روي عن ابن عباس ﷺ؛ لذلك لم أشرحهما ولوضوح معناهما.

إِفْـرَادُ رَبِّ الْـخَـلْـقِ بِـالْـعِـبَـادَةْ
فـاعـمـلْ بِـهِ تـسـتـوجِـبِ الـسَّـعَـادَةْ

وفي هذين البيتين بيان مكانة التوحيد بين الأوامر ومنزلته بين الطاعات، وتعريفه، فبين أنه أعظم ما أمر الله به فهو أعظم فريضة فرضها الله على العباد علماً وعملاً وهو الذي لأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وبه تكفر الذنوب وتستوجب الجنة وينجى من النار.

وعرفه بأنه إفراد الله بالعبادة، أي: أن تعبد الله وحده مخلصاً له العبادة بجميع أنواعها من دعاء واستغاثة ورجاء وخوف وتوكل وغير ذلك مما يأتي ذكره وشرحه في محله إن شاء الله تعالى.

وهذا التعريف الذي عرف به التوحيد هو تعريف له بمعناه الأخص وهو توحيد الألوهية، وإنما عرفه بمعناه الأخص؛ لأنه هو الذي زلت فيه أقدام المشركين الذين أرسل إليهم الرسل وهو الذي زلت فيه أقدام كثير ممن ينتسب إلى الإسلام من عباد القبور والمستغيثين بالأولياء والصالحين، وإلا فتعريف التوحيد بمعناه الأعم الشامل لأنواعه الثلاثة هو: (إفراد الله بما يختص به)، فدخل فيه توحيد الألوهية والربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وأعـظـمُ الـذنـوبِ والْـمَـنَـاهِـي
إشـــراكُ غـــيـــرِ الـــلـــهِ بـــالإلـــهِ
فـيـمَـا بـهِ يـخـتـصُّ مِـنْ دُعَـاءِ
أَوْ حُـــبٍّ اوْ تَـعْـظِـيـمٍ اوْ رَجَـاءِ

بين في هذين البيتين ما يناقض التوحيد وهو الشرك بالله وهو دعوة غير الله مع الله وسؤال غير الله معه من ملك أو نبي، أو ولي، أو شجرة، أو قبر، أو حجر أو جني، وأن يستعين به ويتوجه إليه ويخافه ويرجوه من دون الله.

والشرك بالله أعظم ذنب عصي الله به لأنه اعتداء على حق الله الذي هو أعظم الحقوق، والشرك هو الظلم العظيم كما أخبر الله في كتابه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمَان: ١٣].

والظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولا شك أن أعظم الظلم هو أن تصرف ما لله لغير الله، فمن أشرك بالله فقد وضع الشيء في غير موضعه؛ لأنه اعتدى على حق الله فصرفه لغيره، ولأنه شبه المخلوق بالخالق. والدليل على ذلك قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاء: ٣٦].

ففيه الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وبيان أن أعظم الأوامر هو التوحيد وأعظم المناهي هو الشرك.

فالواجب على المسلم الحذر من الشرك صغيره وكبيره، وأن يتعهد نفسه دائماً ؛ لأن الشرك أخفى في هذه الأمة من دبيب النمل.

فَإِنْ سُئِلْتَ مَا الأُصُولُ الَّتْ يَجِبْ

عِرفَانُها عَلَى العبادِ فَلْتُجِبْ

أنْ يعرفَ الإنسانُ ربَّهُ العَلِي

والدينَ والرسولَ خيرَ من تُلِي

هذا شروع في تفصيل الأصول الثلاثة التي تقدمت مجملة وبيان الأصل الأول منها الذي هو معرفة الله، أي إذا سألك سائل عن الأصول الثلاثة التي يجب على كل مكلف معرفتها والعمل بمقتضاها فقل له: هي: أن يعرف العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ.

والأصل الأول من هذه الأصول أن يعرف العبد ربه وهذا أصل الأصول وأعظم الأمور فيجب على العبد معرفته؛ ليعبد الله على بصيرة ومعرفة الله تكون بما تعرف به إلى عباده في كتابه وسنة رسوله من أسمائه وصفاته وأفعاله وآياته السمعية والكونية الدالة على عظمته ووحدانيته واستحقاقه العبادة دون سواه.

وربِّيَ اللهُ الَّذي رَبَّانَا

بأنْعُمٍ تَستوجِبُ الإيمَانَا

وَهْـوَ الـذي دومـاً إلـيـهِ أَقْـصِـدُ
لا رَبَّ غـيـرُهُ بـحـقٍّ يُـعْـبَـدُ

أي: إذا سألك سائل من ربك فقل: ربي هو الله خالقي ومالكي الذي أوجدني من العدم، وأوجد جميع العالمين، وهو الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه الظاهرة والباطنة التي تستوجب مني ومن غيري الشكر، والشكر يكون بصرف هذه النعم في ما خلق العبد لأجله، وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له جل وعلا، ونعم الله لا تحصى كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والدليل على تفرده بالخلق والإيجاد والإنعام المستلزم لإفراده بالعبادة قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٥].

ففيها تفرده بالخلق والربوبية والملك، وفيها تفرده بالعبادة فإن الرب إذا أفرد دخل فيه المعبود، فهو المالك المتصرف المعبود وحده دون سواه.

وَمَـنْ سِـوَى الإلـهِ عَـالَـمـاً سُـمِـي
وإنَّـنِـي مـنـهـمْ فَـلا تَـكُـنْ عَـمِـي

أي: أن كل ما سوى الله يسمى عالماً، فالوجود قسمان: رب ومربوب، فالرب هو الخالق سبحانه المتفرد بالربوبية والألوهية،

وما سوى الله من جميع ما في هذا الكون من هذه الخلائق هو المربوب، وهو العالم، فكل ما سوى الله مما في هذا الكون مما تراه وتشاهده أو تسمع به هو مربوب مخلوق لله لا يستحق العبادة وإنما المستحق للعبادة هو الرب الخالق جل وعلا.

وقُلْ عرفْتُ اللهَ بالآياتِ
كالليلِ والنهارِ ذِي العِظَاتِ
كَذَاكَ بالمخْلُوقِ كَالسَّمَاءِ
وَالأرْضِ وَالبِحَارِ وَالْهَوَاءِ
فَهَذِهِ وغيرُهَا دليلُ
أَنَّ الإلهَ المنعمُ الجليلُ
مُدبِّرُ الأُمُورِ لا سِوَاهُ
فَلا تَكُنْ ممنْ قَفَا هَوَاهُ

أي: إذا سئلت بم عرفت الله وبم استدللت على معرفة معبودك وخالقك؟ فقل له: عرفت ربي بآياته ومخلوقاته التي نصبها دلائل على وحدانيته وتفرده بالخلق والملك والتدبير والآيات جمع آية وهي العلامة والبرهان.

والمخلوقات جمع مخلوق وهو كل ما أوجد بعد العدم.

وآيات الله تعالى قسمان: سمعية وكونية، فالسمعية هي: ما

جاء في كتابه سبحانه وتعالى، والكونية هي: ما نشاهده من آياته الخلقية كالليل والنهار والشمس والقمر وغير ذلك، فإيجاد مثل هذه المخلوقات دليل واضح على وجود الباري، وتفرده بالخلق والتدبير.

ومن أعظم مخلوقاته الدالة على وحدانيته وتفرده بالملك واستحقاقه العبادة دون سواه السموات السبع وسعتها وما فيها من الكواكب الزاهرة والنجوم المضيئة، والأرضون السبع وسعة أرجائها وما فيها من الجبال والبحار وما بين السموات والأرض من الأهوية والسحاب، وغير ذلك، كل ذلك دليل على وحدانيته سبحانه وتعالى.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والـرَّبُّ قَـدْ يُـعْـنَـى بِـهِ الـمـعـبُـودُ

والـخـالـقُ الْـمُـدَبِّـرُ الـمـحـمُـودُ

أي: من معاني الرب: المعبود والدليل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١-٢٢]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

ويطلق الرب على المالك والمدبر والخالق والرازق والمتصرف، والمعبود الحق هو المألوه المستحق أن يعبد وحده دون سواه، وهو الله سبحانه وتعالى لا غيره.

ثُمَّ العِبَادَةُ الَّتِي بِهَا أَمَرْ

وَصَرْفُهَا لَهُ سَعَادَةُ البَشَرْ

تَعْرِيفُهَا اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا

يَرْضَى بِهِ الإِلَهُ نوعُهَا اعْلَمَا

أي: العبادة التي شرع الله لعباده القيام بها وأمرهم بصرفها له دون سواه وأخبر أن من صرفها له دون غيره فقد استحق الفوز برضا الله والنجاة من عذاب الله هذه العبادة عرفها العلماء بتعاريف كثيرة من أحسنها وأجمعها ما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث عرفها بقوله: (**هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة**).

وهذا التعريف من أحسن وأجمع ما عرفت به العبادة فكل نوع من أنواع العبادة داخل في هذه العبارة، فيدخل فيها ما يأتي ذكره من أنواع العبادة، وما لم يذكر مما شمله الحد من سائر أنواع الطاعات والقربات التي يحبها الله.

وقوله: (نوعها اعلما) شروع في ذكر أنواع العبادة التي ذكرت في الأصل وتتمته في الأبيات التي بعده.

لِاسْلامُ وَالإِيمانُ وَالإِحْسَانُ

كَذَا الدُّعَا يَحْظَى بِهِ الإِنسَانُ

أي: من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله الإسلام والإيمان والإحسان والدعاء فاشتمل هذا البيت على أربعة أنواع، أما الثلاثة الأول فسيأتي الحديث عنها مفصلاً مع ذكر أدلتها في الأصل الثاني من هذا الكتاب المبارك.

وأما الدعاء فبدأ به بعد هذه الثلاثة لأنه أهم أنواع العبادة، فقد جاء في الحديث: **(الدعاء هو العبادة)**[1].

والدليل على أن الدعاء من أنواع العبادة، بل من أجلها

(١) أخرجه أبو داود في السنن كتاب الصلاة باب الدعاء ١/ ٢٧٩، رقم الحديث ١٤٧٤، والترمذي في السنن: أبواب تفسير القرآن: ٥/ ٢٢٧-٢٢٨، ٤٥٢، رقم الحديث: ٣٢٠٧، ٣٥٢٨، وابن ماجه في السنن كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ص: ١٢٥٨، رقم الحديث: ٣٨٢٨.

شأناً وأعظمها قدراً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافر: ٦٠].

ففي الآية دليل على أن الدعاء عبادة، وجاء في غير موضع من القرآن أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك أكبر.

وَالـخـوفُ والـرَّجـاءُ والْـخُـضُـوعُ
ورَغْـبَـةٌ وَرَهْـبَـةٌ خُـشُـوعُ

ذكر في هذا البيت ستة من أنواع العبادة، وهي الخوف، وهو من العبادات القلبية بل هو ركن العبادة الأعظم ولا يستقيم إخلاص الدين لله إلا به والخوف ثلاثة أنواع:

الأول خوف طبيعي كخوف الإنسان من السبع والنار، والغرق فهذا لا يلام عليه الإنسان لكن إن كان سبباً لترك واجب أو فعل محرم فهو حرام والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥].

الثاني: خوف العبادة وهو: أن يخاف أحداً يتعبد بالخوف له وهذا لا يكون إلا لله وصرفه لغير الله شرك أكبر.

الثالث: خوف السر كأن يخاف صاحب القبر أو يخاف ولياً من الأولياء بعيداً عنه معتقداً أنه يسمعه أو يعلم ما يصدر عنه

من أفعال فهذا أيضاً من الشرك الأكبر؛ لأنه خاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والدليل على أنه من أنواع العبادة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥]، فقد جعل الخوف من الله شرطاً في الإيمان، فكما أنه إذا دعى غير الله انتفى منه الإيمان كذلك إذا خاف غير الله خوف السر أو خوف العبادة انتفى منه الإيمان.

والثاني من أنواع العبادة المذكورة في هذا البيت الرجاء، وهو طمع الإنسان في أمر قريب المنال، وقد يكون في أمر بعيد المنال تنزيلاً له منزلة القريب.

والرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله، وصرفه لغير الله شرك إما أصغر وإما أكبر بحسب ما يقوم بقلب الراجي.

والدليل على أن الرجاء من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والثالث الخضوع: وهو الذل والاستكانة، فهو عبادة لا تكون إلا لله.

والرابع والخامس والسادس: الرغبة والرهبة والخشوع: أما الرغبة فهي: محبة الوصول إلى الشيء المحبوب.

والرهبة هي الخوف المثمر للهرب من المخوف فهي خوف مقرون بعمل.

والخشوع الذل والتطامن لعظمة الله فهو قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن والخشوع في القلب والبصر والصوت، وكلاهما لا يكون إلا لله.

والدليل على أن هذه الثلاثة من أنواع العبادة التي أمر الله بصرفها له دون سواه قوله تعالى عن أنبيائه الكرام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٩٠].

فدلت الآية على أن هذه الأنواع الثلاثة من أجل أنواع العبادة، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر.

تَـوَكُّـلٌ وَخَـشْـيَـةٌ إِنَـابَـةْ

تَـعُـوُّذٌ مِـنْ شَـرِّ مَـا أَصَـابَـهْ

ذكر في هذا البيت أربعة من أنواع العبادة وهي: التوكل، والتوكل هو الاعتماد على الشيء.

والتوكل على الله الاعتماد عليه كفاية وحسباً في جلب نفع أو دفع ضر، والدليل على كونه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ٢٣].

وقد ذكر العلماء أن التوكل أنواع فمنه:

التوكل على الله وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به للآية السابقة.

ومنه توكل السر بأن يعتمد على ميت في جلب منفعة أو دفع مضرة فهذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفاً سرياً في الكون، وأن له تدبيراً في هذا الكون، ولا فرق بين أن يكون المعتمد عليه في هذا نبياً أو ولياً أو طاغوتا عدوا لله تعالى.

ومنه التوكل على غير الله من الأحياء فيما يقدرون عليه فهذا شرك أصغر؛ لأن التوكل هو الاعتماد على الغير كفاية وحسباً، وذلك خاص بالله، فلا يجوز الاعتماد إلا على الله.

والثاني من الأنواع الخشية، والخشية هي الخوف المبني على العلم بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه، فهي أخص من الخوف.

وهي: كالخوف أنواع، فمنها: خشية طبيعية لا يلام عليها الإنسان ما لم تؤد إلى ترك واجب أو فعل محرم، ومنها الخشية التي لا تكون إلا لله، فتلك عبادة لا يجوز صرفها لغير الله والدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائدة: ٤٤]،

فدلت الآية على أنها من أجل العبادات فصرفها لغير الله شرك أكبر.

وما قيل في الخوف والخشية من انقسامهما إلى طبيعي وغيره يقال في الرهبة والرغبة كذلك.

والثالث: الإنابة، وهي الرجوع إلى الله تعالى بالقيام بطاعته واجتناب معصيته، وهي عبادة لا تكون إلا لله تعالى، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٥٤].

والرابع: الاستعاذة، وهي طلب الحماية من مكروه، وهي أنواع فمنها:

الاستعاذة بالله تعالى المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شر حاضر أو مستقبل صادر من بشر أو من غير بشر، فهذه الاستعاذة واجبة لا يجوز صرفها لغير الله والدليل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفَلَق: ١].

ومنها الاستعاذة بصفة من صفات الله ككلامه وعظمته وعزته وقدرته، فهذه أيضاً كالأولى، لا يجوز صرفها لغير الله، ودليلها قوله ﷺ: (**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما**

(١) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره ص: ١٤٥٢-١٤٥٣، حديث رقم (٢٧٠٧، ٢٧٠٨، ٢٧٠٩).

خلق)[1]، وقوله: **(وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)**[2]، وقوله: **(أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)**[3].

ومنها: الاستعاذة بالأموات أو بالأحياء الذين لا يقدرون على العوذ كمن يستعيذ بميت في قبره أو يستعيذ بشخص بعيد عنه لا يقدر على دفع الأذى عنه فهذه من الشرك الأكبر لأنه صرف للعبادة لغير الله، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجنّ: ٦].

والرابع الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر والأماكن وغيرها فهذا جائز، ودليله قوله ﷺ في ذكر الفتن: **(من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به)**[4].

ذَبْحٌ ونَذْرٌ بَعْدَهُ استِعانَةْ

كَذَا اسْتِغَاثَةٌ بِهِ سُبْحَانَهْ

---

(١) أخرجه أبو داود في أبواب النوم: باب ما يقول إذا أصبح: ٥/ ٣٨٤-٣٨٥، رقم الحديث: ٥٠٣٥.

(٢) صحيح مسلم: كتاب السلام باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ص: ١٢٠٩، رقم الحديث: ٢٢٠٢.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام ص: ٨٨٦، رقم الحديث ٣٦٠١، وكتاب الفتن: باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ص: ١٧٥٢، رقم الحديث: ٧٠٨١، ٧٠٨٢، وصحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب نزول الفتن كمواقع القطر ص: ١٥٤٢، رقم الحديث٢٨٨٦.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الأضاحي: باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله: ص: ١٠٩٣، رقم الحديث ١٩٧٨.

ذكر في هذا البيت أربعة من أنواع العبادة وهي:

الذبح، والمراد به ذبح القربان لله تعالى من الضحايا والهدايا ونحو ذلك فهو من أفضل الطاعات وأعظم القربات التي لا يجوز صرفها لغير الله فصرفه لغير الله شرك أكبر، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، ومن السنة: **(لعن الله من ذبح لغير الله)**[(١)].

فدلت الآية والحديث على أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، فإذا صرفه أحد لغير الله بأن ذبح للأصنام أو ذبح للقبور المعبودة من دون الله التماساً لشفاعة أربابها ورجاءً لقضاء الحاجات منهم أو ذبح للشياطين فهو مشرك كافر.

والثاني: النذر، وهو إيجاب المكلف على نفسه ما ليس واجباً شرعاً تعظيماً للمنذور، والدليل على أنه عبادة يجب صرفها لله وحده قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ويجب أن يعلم أن عقد النذر حرام أو مكروه لقوله ﷺ: **(النذر لا يأتي بخير)**[(٢)]، ولكن إذا كان نذر طاعة وجب الوفاء

(١) صحيح مسلم: كتاب النذر: باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً ص: ٨٩٠، رقم الحديث ١٦٣٩.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/ ٤٨٩، رقم الحديث ٢٦٨٥.

به، والنذر لغير الله شرك؛ لأنه التزام بعبادة لغير الله.

والثالث الاستعانة، وهي: طلب العون، والاستعانة بالله من أجل العبادات، وهي تتضمن الثقة بالله والاعتماد عليه.

والاستعانة أنواع، فمنها الاستعانة بالله المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه وتفويض الأمر إليه فهذه لا تكون إلا لله تعالى، ودليلها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، وفي الحديث: **(إذا استعنت فاستعن بالله)**[1].

الثاني: الاستعانة بالأموات مطلقاً أو بالأحياء على أمر لا يقدرون على مباشرته وتنفيذه، فهذه شرك أكبر؛ لأنها لا تصدر إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون.

والثالث الاستعانة بالمخلوق الحي على أمر يقدر عليه فهذه على حسب المستعان عليه فقد يكون المستعان عليه أمراً مباحاً وقد يكون براً وطاعة، وقد يكون محرماً أو مكروها فإن كان المستعان عليه حراماً فهي حرام؛ لما فيها من التعاون على الإثم والعدوان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المَائدة: ٢].

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب دعاؤكم إيمانكم: ص: ١٢، رقم الحديث ٨، ومسلم كتاب الإيمان: باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام: ص: ٢٧-٢٨، رقم الحديث ١٦.

والرابع: الاستغاثة، وهي أخص أنواع الدعاء؛ فإن دعاء المكروب يقال له استغاثة، والاستغاثة طلب الإغاثة، وهي الإنقاذ من الضيق والشدة، والله تعالى غياث المستغيثين، أي: مدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم.

والاستغاثة أنواع، فمنها: الاستغاثة بالله تعالى في دفع الكربات والتخليص من الشدائد والمهالك: وهي من أجل أنواع العبادات؛ لما فيها من كمال الالتجاء إلى الله والاعتصام به، فمثل هذا النوع خاص بالله لا يجوز صرفه لغيره، فمن صرفها لغير الله تعالى كأن يستغيث بالأصنام أو بأصحاب القبور من الأموات سواء كانوا من الأنبياء أو الأولياء أو سواهم أو يستغيث بالأحياء فيما لا يقدرون عليه معتقداً أن لهم تأثيراً في الكون خفياً فهذا مشرك كافر بالله ؛ لأنه جعل لهم حظاً من الربوبية.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفَال: ٩].

أما الاستغاثة بالحي القادر فيما يقدر عليه فهذا جائز كما في قصة موسى عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القَصَص: ١٥].

وَغَـيْـرُ ذَا مـمـا الإلـهُ قَـدْ أَمَـرْ
بِـصَـرْفِـهِ لـلـهِ فـاقـتَـفِ الأَثَـرْ
جَـمِـيـعُـهَـا لَـهُ فـمَـنْ يَـكُـنْ نَـوَى
بـهـا سِـوَى الـرَّحْـمـنِ كَـافـرٌ هَـوَى

يبين في هذين البيتين أن ما مر ذكره من أنواع العبادة وغيره مما لم يذكر من أنواعها مع شمول الحد له كله لله لا يجوز صرفه لغيره فمن صرف نوعاً من أنواع العبادة مما تقدم بيانه بأدلته أو غيره لغير الله مثل أن دعا غير الله من الأموات والغائبين أو رجاهم أو خافهم أو توكل عليهم أو سألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة، نسأل الله تعالى أن يميتنا على التوحيد والسنة.

الأصل الثاني
معرفة دين الإسلام بالأدلة

ثَـانِـي الأُصُـولِ فَـاسْـتَـمِـعْ بَـيَـانِـي
أَنْ تَـعْـرِفَ الإِسـلامَ بـالـبُـرْهَـانِ

لما فرغ من بيان الأصل الأول الذي هو معرفة الله شرع في بيان الأصل الثاني من أصول الدين، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة، والدين هو الطاعة والتوحيد وجميع ما يتعبد به، وقوله بالأدلة تنبيه على أنه لا يسوغ التقليد في ذلك، بل لا بد أن يكون معه أدلة من كتاب ربه وسنة رسوله على ما خلق لأجله ليكون على نور وبرهان وبصيرة من ربه، والمراد بالبرهان في البيت الدليل.

فلا بد من معرفة أمور الدين ومراتبه بأدلتها وذلك بالنسبة لمن يستطيع معرفة الأدلة، وأما عوام المسلمين فلا يجب عليهم معرفة الأدلة لعجزهم عن ذلك فإذا صح اعتقادهم وكانوا على يقين مؤمنين بالله وله موحدين ولنبيهم متبعين فهم على صراط مستقيم.

والمراد بالدليل هنا كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ، فلا يسوغ للمسلم أن يأخذ دينه من غير هذين المصدرين ولا يجوز له أن يستقي من غير هذين المنبعين كما يفعل كثير من أهل البدع الذين يعتمدون على عقولهم في فهم دين الله أو يعتمدون على منامات شيوخهم من أهل الضلال الذين يكذبون على عباد الله.

مَعْنَاهُ الِاسْتِسْلامُ بالتَّوْحِيدِ
لِلمَالِكِ الْمُدَبِّرِ المجيدِ
وَأَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ ذَا انقِيَادِ
بِطَاعةٍ لِخَالِقِ الْعِبَادِ
مُبَارِئاً لِلشِّرْكِ وَالكُفَّارِ
مُجَانِباً لِزُمرَةِ الأشرارِ

في هذه الأبيات تعريف الإسلام وهو: الاستسلام لله بالتوحيد أي: الذل والخضوع له بإفراده بالربوبية والملك والتدبير وإفراده بما يختص به من العبادات وعدم صرفها لغيره والخضوع والانقياد له بفعل الطاعات وترك المنهيات رغبة فيما عنده وخوفاً من عقابه، والبراءة من الشرك وأهله في الاعتقاد والعمل والمظهر في كل خصلة من خصالهم وعمل من أعمالهم والبراءة من الانتساب إليهم بأن يكون معادياً لهم غير متشبه بهم في قول أو فعل.

والإسلام له معنيان:

معنى عام ومعنى خاص والإسلام بمعناه العام يراد به توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له دون سواه وهو بهذا المعنى ليس خاصاً بهذه الأمة بل هو دين الأنبياء كلهم ؛ لأن كل الأنبياء إنما بعثوا بتوحيد الله والبراء من الشرك وأهله وعلى هذا جاءت أدلة تبين أن الإسلام دين للأنبياء عليهم السلام قبل محمد ﷺ بهذا المعنى العام الذي هو توحيد الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ [المَائدة: ٤٤]، وذكر عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يُونس: ٨٤]، وقال عن أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٣].

فهذا هو الإسلام بمعناه العام.

وأما الإسلام بمعناه الخاص فيراد به الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ، وهو الدين الخاتم وشريته ناسخة لما تقدم من شرائع الأنبياء، ودين الإسلام لا يقبل الله من أحد دينا غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

عَلَى مَرَاتِبِ ثلاثةٍ يَجِي
فالأولُ الإسلامُ خيرُ منهَجِ

بين في هذا البيت أن الدين على ثلاث مراتب، والمراتب جمع مرتبة وهي المنزلة، والمنهج هو الطريق الواضح، وهذه المراتب هي: الإسلام والإيمان والإحسان كما جاء ترتيبها في حديث جبريل، وكل مرتبة منها لها أركان ستأتي فبدأ بذكر أركان الإسلام وسيأتي سردها في الأبيات الآتية.

أَرْكَانُهُ خَمَسٌ عَلَيْهَا يَنْبَنِي
رُكْنُ الشَّهَادَتَيْنِ أَوَّلاً عُنِي

ذكر في هذا البيت أن أركان الإسلام خمسة وأن الركن الأول منها والذي هو أهم الأركان بل هو شرطها المصحح لها هو ركن الشهادتين، أي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وسيأتي بيان معنى الشهادتين في ما يأتي بعد هذا البيت.

وركن الشيء هو جانبه الأعظم كأركان البناء ولهذا قال ﷺ: (بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)[1].

(١) البخاري بلفظ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ص: ٦٥٩، رقم الحديث٢٦٩٧، ومسلم باللفظين معاً في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور: ص: ٩٤٥-٩٤٦، رقم الحديث ١٧١٨.

فالمراد بكون هذه المذكورات أركاناً للإسلام أنه لا يستقيم الإسلام إلا بها ولا يثبت بدونها، وما فقد منها زال الإسلام بفقده.

مَعْنَى الشَّهَادَتَيْنِ أَنْ لَا يُعْبَدَا
بِالحقِّ إِلَّا اللهُ مُنْزِلُ الْهُدَى

ذكر هنا معنى الشهادتين وبدأ بشهادة أن لا إله إلا الله، وبين أن معناها: لا معبود حق إلا الله وحده، فهو الإله الحق، وكل معبود سواه باطل كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحَجّ: ٦٢]، فتضمنت نفي الإلهية عن كل ما سوى الله وإثباتها لله وحده، ودليلها قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٨].

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزّخرُف: ٢٦-٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٦٤].

تَـصْـدِيـقُ أَحْـمَـدَ الـنَّـبِـيِّ الْـمُـجْـتَـبَـى
رَسُـولِ رَبِّ الـخـلـقِ صَـادِقِ الـنَّـبَـا
وَكَـوْنُـهُ الْـمُـطَـاعَ فِـيـمَـا يَـأْمُـرُ
والـبُـعْـدُ عَـمَّـا عَـنْـهُ دَومـاً يَـزْجُـرُ
كَـذا الْـتِـزَامُ الْـخَـلْـقِ أَن لَا يَـعْـبُـدُوا
إلا بِـمَـا قـدْ سَـنَّـهُ مـحـمـدُ
إِذْ لَـيْـسَ يَـرْضَـى الـلـهُ إِلَّا مَـا شَـرَعْ
رَسُـولُـهُ الـدَّاعِـي إلـى نَـبْـذِ الـبِـدَعْ

ذكر في هذه الأبيات معنى شهادة أن محمداً رسول الله وأن معناها طاعته في ما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما عنه نهى وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فأما طاعته فقد تقرر وجوبها في الكتاب والسنة وأن من أطاعه فقد أطاع الله قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النِّسَاء: ٨٠].

وأما تصديقه فيما أخبر فهو من مقتضى شهادة أنه رسول الله فهو الصادق المصدوق وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا محالة.

وأما اجتناب ما نهى عنه وزجر فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحَشر: ٧].

وأما امتناع عبادة الله إلا بما شرع رسول الله فقد دلت عليه الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة فلا يجوز للعبد أن يعبد الله تعالى إلا بما جاء به محمد ﷺ لا يجوز له أن يعبد الله تعالى بهواه أو بشرع من عند نفسه قال ﷺ:(**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**)[1]، فالمبتدع في دين الله لم يعمل بمقتضى شهادة أن محمداً رسول الله.

وجاء في الشرع الحنيف التحذير من البدعة وبيان خطرها وأن صاحبها على خطر عظيم؛ لأن المبتدع مستدرك على الله ورسوله زاعم أن الدين لم يكمل أو أن الرسول لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه أو أن الصحابة لم يبلغوا ما بلغهم رسول الله وكل ذلك باطل بإجماع أهل العلم والإيمان.

وقد حذر السلف رضوان الله عليهم من البدع وأصحابها وبينوا خطرها على العباد فالواجب على العبد أن يدخل فيما دخل فيه الصدر الأول من هذه الأمة وأن يكفيه ما كفى محمداً ﷺ وأصحابه، وأن لا يبتدع في دين الله ما ليس منه.

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ

(١) البخاري بلفظ (بضع وستون...) في كتاب الإيمان باب أمور الإيمان ص: ١٣، رقم الحديث ٩، ومسلم في كتاب الإيمان: باب بيان عدد شعب الإيمان ص: ٣٩-٤٠، رقم الحديث ٣٥.

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولا بد مع النطق بهذه الكلمة العظيمة من العمل بما اقتضته ودلت عليه مما سبق بيانه.

إِقَامَةُ الصَّلاةِ رُكْنٌ ثَانِ

فِعْلُ الزَّكَاةِ ثَالِثُ الأَرْكَانِ

ذكر في هذا البيت الركنين الثاني والثالث من أركان الإسلام، والركن الثاني هو إقامة الصلاة والصلاة هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي الصلة بين العبد وربه، وفضائلها كثيرة شهيرة وتركها كفر على الصحيح من أقوال أهل العلم.

والركن الثالث أداء الزكاة وهي قرينة الصلاة في غير ما موضع من كتاب الله، والدليل على كونهما ركنين من أركان الإسلام لا يستقيم الإسلام بدونهما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البَيِّنَة: ٥].

وَرَابِعٌ صِيَامُ مَنْ أَطَاعَا

وخَامِسٌ حَجُّ الذي استَطَاعَا

ذكر في هذا البيت الرابع والخامس من أركان الإسلام وهما صيام رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

أما صيام رمضان فهو رابع أركان الإسلام، وقد أوجبه الله على عباده المؤمنين؛ لما فيه من زكاة النفوس وتطهيرها، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة، وفرض في السنة الثانية من الهجرة، ودليل وجوبه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣].

ففيها وجوب الصيام وأهميته وبيان الحكمة من مشروعيته.

وأما الحج فهو الركن الخامس من أركان الإسلام، ووجوبه معلوم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، ودليل وجوبه على المستطيع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].

ثانيهما مرتبة الإيمان

أركانه ستٌّ بلا نكران

لما فرغ من بيان المرتبة الأولى من مراتب الدين وذكر أركانها شرع في بيان المرتبة الثانية وذكر أركانها والمرتبة الثانية هي الإيمان.

والإيمان عند أهل السنة قول وعمل قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فدخل فيه فعل جميع المأمورات سواء كان من الواجبات أو من المستحبات، ودخل فيه ترك جميع المنهيات سواء كان ذلك المنهي ينافي أصول الدين بالكلية أولا.

وهو بضع وسبعون شعبة، كما جاء في الحديث عنه ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[1].

وأما أركانه وأصوله التي يتركب منها ويزول بزوالها فستة أركان فإذا زال واحد منها زال الإيمان وخرج العبد إلى الكفر، وسيأتي بيانها في ما يلي من الأبيات.

أنْ يُـؤْمِـنَ الـعَـبْـدُ بـخـالـقِ الـسَّـمَـا

والـرُّسْـلِ والأمْـلاكِ فـاقْـفُ مَـنْ سَـمَا

ذكر في هذا البيت ثلاثة من أركان الإيمان وهي: الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان بالرسل.

(١) جزء من حديث جبريل المشهور الذي أخرجه مسلم في أول كتاب الإيمان وبمعناه مسلم والبخاري انظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ص: ٢١-٢٤، والبخاري كتاب الإيمان باب سؤال النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ص: ٢٣، رقم الحديث ٥٠.

أما الإيمان بالله فهو أعظم أركان الإيمان وهو أصل الأصول وعليه مدار بقية الأركان ومعناه أن يؤمن العبد بوحدانية الله وتفرده بأسمائه وصفاته وأنه الإله الحق وأن كل ما سواه من الآلهة فهي آلهة باطلة لا تستحق العبادة.

والثاني: الإيمان بالملائكة يؤمن بهم العبد وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، خلقهم الله من نور، ومنحهم الانقياد التام لأمره والقوة على تنفيذه والإيمان بهم يتضمن الإيمان بوجودهم، وبما علمنا اسمه منهم كجبريل، وما علمنا من صفاتهم، وبما علمنا من أعمالهم.

والثالث: الإيمان بالرسل، والرسل جمع رسول، والمراد به هنا من أوحي إليه من البشر بشرع وأمر بتبليغه، فيؤمن العبد بأن رسالتهم حق من عند الله تعالى فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع، ويؤمن بمن علم اسمه منهم باسمه، ويصدق أخبارهم، ويعمل بشريعة من أرسل إليه منهم.

والكُتْبِ كَالْقُرْآنِ والزَّبُورِ

ويومِ بعثِ الناسِ مِنْ قُبُورِ

ذكر في هذا البيت ركنين من أركان الإيمان هما الإيمان بالكتب والإيمان باليوم الآخر.

أما الإيمان بالكتب فهو أحد أركان الإيمان الستة.

والمراد بالكتب الكتب التي أنزلها الله على رسله رحمة لخلقه وهداية لهم ليصلوا إلى سعادة الدنيا والآخرة.

فيؤمن العبد بأن هذه الكتب نزلت من عند الله حقاً، ويؤمن بما علم اسمه منها باسمه كالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، والتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، والزبور الذي أنزل على داوود عليه السلام، ويصدق بما صح من أخبارها كأخبار القرآن، وأخبار مالم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة، و يعمل بما في القرآن والرضا والتسليم بما فيه من الأحكام فهمنا حكمته أم لم نفهم.

والثاني مما ذكر في هذا البيت من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر، وهو الركن الخامس، واليوم الآخر هو يوم القيامة الذي يبعث الناس فيه للجزاء والحساب، والإيمان به يتضمن الإيمان بالبعث والحساب والجزاء والجنة والنار وما يحصل في ذلك اليوم من أهوال، والصراط والميزان، والحوض والشفاعة وكل ما جاء في كتاب الله أو صح عن رسول الله ﷺ من أمور ذلك اليوم.

ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر الإيمان بالموت، وما بعد الموت من فتنة القبر وعذاب القبر ونعيمه، وأن الناس يسألون

في قبورهم، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وبَعْدَهُ الإيمانُ بالأقدَارِ
خَيْراً وَشَرّاً فاسْتَمِعْ يا قارِي

ذكر في هذا البيت الركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

والقدر: تقدير الله للكائنات حسبما سبق علمه به واقتضته حكمته، فيؤمن العبد بكل ما قدره الله من خير وشر.

والإيمان بالقدر يتضمن أموراً أربعة:

أولاً: الإيمان بعلم الله وأنه علم ما كان وما يكون جملة وتفصيلاً أزلاً وأبداً.

ثانياً: الإيمان بالكتابة وأن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

ثالثاً: الإيمان بأن جميع ما في هذا الكون من حركة وسكون لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

رابعاً: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالى بذواتها وصفاتها وأفعالها، فالعباد وأفعالهم مخلوقون لله تعالى.

والإيمان بالقدر على ما ذكرنا لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية؛ لأن الشرع والواقع دلا على إثبات ذلك له، فالعباد لهم قدرة وإرادة هم بها مكلفون وعليها محاسبون والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ودليل هذه الأركان من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، ودليل القدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القَمَر: ٤٩].

وَالثَّالِثُ الإِحْسَانُ أَنْ تَسْتَحْضِرَا
قُرْبَ العَلِي وَأَنَّه لَنَا يَرَى
وفَوْقَ ذَا أَنْ تَعْبُدُو الرَّحْمَانَا
كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ عِيَانَا

ذكر في هذين البيتين المرتبة الثالثة من مراتب الدين وهي الإحسان وهي أعلى المراتب، ولا تكون إلا بعد استكمال العبد لما سبق من المراتب والإحسان كما فسره النبي ﷺ في الحديث: **(أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**[1] وهو نهاية

(١) جزء من حديث جبريل الطويل وقد تقدم تخريجه.

الإخلاص، وتحقيق المتابعة وبذلك يكون الإحسان هو إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن فهو من حيث الباطن كمال الاستحضار وقوته، ومن حيث الظاهر كمال المتابعة وله مقامان مذكوران في الحديث السابق هما:

أن تعبد الله كأنك تشاهد ربك ومعبودك الذي قمت بين يديه وأطعته فيما أمرك به، وهذا أعلى المقامين، ثم إن لم يحصل لك هذا المقام فلتعبد الله على أنه يراك ويسمعك ويعلم حالك.

ودليل الإحسان من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٧-٢١٩]

دَلِيلُ هَذَا الأَصْلِ فِي القُرْآنِ
وفي حَدِيثِ الصَّادِقِ العَدْنانِي
إِذْ جاءَهُ جبريلُ يستفتيهِ
فَبَيَّنَ الدِّينَ لِمَنْ يَعِيهِ

ذكر في هذين البيتين أن هذا الأصل الذي هو الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة دل عليه الدليل من القرآن والسنة، فأما الدليل من القرآن فقد سبق في مواضعه مفصلاً،

وأما الدليل من السنة فهو حديث جبريل المشهور الذي اشتمل على بيان المراتب الثلاث، الإسلام والإيمان والإحسان حيث قال ﷺ في آخر الحديث: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1].

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت: ٣/ ٢٠١، رقم الحديث ٢٤٧١.

الأصل الثالث

معرفة نبيكم ﷺ

والـثـالـثُ الـعـلـمُ بـخـيـرِ مُـقْـتَـفَـى
مـحـمـدِ الـنـبـيِّ صـاحـبِ الـوفَـا
هُـوَ ابـنُ عـبـدِ الـلـهِ مَـنْ قَـدِ انـتَـمَـى
لِـلـنَّـضْـرِ جَـدِّهِ الَّـذِي بِـهِ سَـمَـا
والـنَّـضْـرُ مِـنْ عـدنـانَ وَهْـوَ يـنـتَـمِـي
لـلـجَـدِّ إسـمـاعـيـلَ صِـهْـرِ جُـرْهُـمِ

لما أنهى الحديث عن الأصلين الأول والثاني وبين ما يتعلق بهما شرع يتحدث عن الأصل الثالث من الأصول التي يجب على المكلف معرفتها وهو معرفة نبينا محمد ﷺ.

ومعرفته ﷺ أصل عظيم يجب الاعتناء به والسعي في تحصيله إذ لا وصول للخلق إلى رضا خالقهم إلا بالإيمان به وتحقيق ومعرفة ما جاء به والعمل به ولا وصول إلى معرفة ما يحبه الله وما لا يحبه إلا عن طريقه فهو الواسطة بين الخلق

وبين ربهم وهو المبلغ عن الله وهو الأمين على وحي الله وهو الذي يسأل عنه العبد في قبره كما يسأل عن ربه ودينه، فلا يسأل عن شيخ من شيوخه ولا يسأل عن ولي من أولياء الله وإنما يسأل عن محمد ﷺ وماذا يعرف عنه وماذا يقول عنه.

وإذا كان كذلك عرفنا وجه كون معرفته أحد الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها، فإنا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الرب جل جلاله ولا الأصل الثاني الذي هو معرفة دين الإسلام إلا بالواسطة بيننا وبين الله فتحتمت معرفته، ووجب العلم به.

ومعرفته ﷺ تتضمن أشياء منها: العلم باسمه ونسبه وعمره وبقائه في الدنيا ووفاته ومعرفة ما نبئ به وما أرسل به وبلده ومهاجره، ومنها ـ وهو أعظمها ـ معرفة ما أرسل به وكل ذلك سيأتي مفصلا في مواضعه إن شاء الله تعالى.

فاسمه ﷺ محمد وهو أشهر أسمائه ﷺ، وأبوه عبد الله فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش، وقريش أحد أجداد النبي ﷺ، قيل هو النضر وقيل قريش فهر، والنضر من عدنان، وعدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقوله في البيت (للنضر جده الذي به سما) معناه أن النضر

هو الذي سما بالنبي ﷺ وعلا به على القبائل لكون النبي ﷺ من ذريته.

وقوله: (للجد إسماعيل صهر جرهم) معناه: أن إسماعيل عليه السلام كان متزوجاً من قبيلة جرهم العربية التي نزحت من اليمن واستوطنت بمكة مع إسماعيل وأمه، فنشأ فيهم إسماعيل وتزوج منهم.

سِتُّونَ بعدَهَا ثلاثةٌ تَلِي
عُمْرُ النبيِّ الهاشميِّ الْمُرْسَلِ
تمامَ أربعينَ جاءَهُ النَّبَا
صلَّى عليهِ اللهُ ما هَبَّ الصَّبَا

في هذين البيتين بيان عمر النبي ﷺ فذكر أن عمره ﷺ ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً.

إِذْ جاءهُ جِبريلُ وَهْوَ في حِرَا
لِينذِرَ الكُفَّارَ في أُمِّ القُرَى
نُبِّئَ بإِقرأْ ثُمَّ بالمدِّثِرِ
أضحَى رسولاً فاستمِعْ وحَرِّرِ

في هذين البيتين بيان أنه ﷺ صار نبياً بنزول سورة (اقرأ)

عليه وهو يتعبد لله في غار حراء فجاءه جبريل بصدر سورة (اقرأ)، فصار نبياً منذ ذلك الوقت ثم فتر الوحي عنه فترة ثم نزل عليه جبريل بصدر سورة المدثر، فصار نبياً رسولاً بنزول صدر سورة المدثر عليه.

عِشْرِينَ عاماً مَعْ ثلاثٍ قَدْ قَضَى
يَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ بَعْدَها مَضَى
لربهِ الرحمنِ خيرُ مقتفَى
صلَّى عليهِ اللهُ نِعْمَ المصطفَى

يذكر في هذين البيتين ما قضاه ﷺ من عمره بعد نبوته حيث بين أنه ﷺ قضى بعد النبوة ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى توحيد الله ونبذ الشرك وإخلاص العبادة لله وحده وبعد الثلاث والعشرين قبضه الله إليه ﷺ.

بمكةٍ مِيلادُه ونشأتُهْ
لطيبةٍ من بعدُ كانتْ هجرتُهْ

في هذا البيت بيان مولده ﷺ وأنه ولد بمكة بشعب علي ونشأ بمكة إلا ما كان منه وهو مع مرضعته حليمة السعدية في البرية، ثم عاد إليها بعد ذلك، وبقي في حضانة جده، ثم انتقل إلى حضانة عمه أبي طالب بعد وفاة جده، وأوحي إليه وهو بمكة، ثم هاجر ﷺ إلى المدينة بعد أن هم الكفار بقتله فأذن الله

له في الهجرة إلى المدينة وقد بايعه أهلها الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية على أن ينصروه ويؤازروه، فهي مهاجره ﷺ وبقي بها إلى أن توفي بها ﷺ.

بَـعَـثَـهُ الـرحـمـنُ بِـالإنـذارِ
عَـنِ ارتـكـابِ الـشـركِ والأوزَارِ
يَـدعُـو إلـى الـتـوحـيـدِ والإسـلامِ
لـيـنـقـذَ الـوَرَى مِـنَ الآثـامِ

تقدم ذكر جملة مما يعرف به ﷺ من اسمه ونسبه ومولده ونحو ذلك ثم ذكر في هذا البيت أعلاها قدراً وأعظمها شأناً وهو معرفة ما بعث به ﷺ فذكر أنه بعث بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد وهذه هي قضية القضايا التي بعث من أجلها ﷺ وإنما قدم النذارة عن الشرك على الدعوة إلى التوحيد ؛ لأن هذا هو مدلول (**لا إله إلا الله**)، ولأن العبادة لا تصح مع وجود المنافي الذي هو الشرك فلو وجدت والمنافي لها موجود لم تصح، ثم ثنى بالتوحيد ؛ لأنه أوجب الواجبات ولا يرفع عمل إلا به.

أَمـضَـى عـلـى هـذا مِـنَ الأعـوامِ
عَـشْـراً لِـدَحْـضِ الـشِّـركِ والأصـنـامِ

أي: أخذ ﷺ على هذا الأمر الذي هو الإنذار عن الشرك والدعوة إلى التوحيد عشر سنين يدعو إلى توحيد الله وينذر

الناس عن الشرك ويبين لهم خطره وأنه أعظم الذنوب التي ينبغي اجتنابها، كل ذلك قبل أن تشرع الشرائع وقبل أن تفرض عليه الصلاة وإنما همه في هذه العشر هو أن يحقق العباد توحيد الله، وأن يكفوا عن الشرك بالله.

وبهذا تعلم عظمة ما بعث به الرسل، وأهمية تحقيق التوحيد وأهمية الدعوة إليه وأنه ما من رسول إلا وهو يدعو قومه إلى هذا الأمر العظيم ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى في أكثر من موضع قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

وَبعدَها دُعِي إلى السَّمَاءِ
مِنْ بعدِ أنْ صلَّى بالانبياءِ
في المسجِدِ الأقصَى وبعدَ ذَا سَمَا
في صُحْبَةِ الأمينِ قاصِدَ السَّمَا
وعَادَ بعدَ الفرضِ للصلاةِ
وقدْ رَأى الكثيرَ مِنْ آياتِ

يذكر في هذه الأبيات أنه ﷺ بعد أن أمضى عشر سنين من عمر دعوته، وهو يدعو خلال هذه العشر إلى توحيد الله ويحذر من الشرك، بعد هذا دعاه ربه إلى السماء فأسرى به بروحه وجسده من المسجد الحرام على البراق إلى المسجد الأقصى

يقظة لا مناماً حيث صلى بالأنبياء هناك ثم عرج به إلى السماء كلما أتى إلى سماء استأذن له جبريل ولقي فيها بعض الأنبياء فلقي في السماء الدنيا آدم عليه السلام وفي السابعة إبراهيم عليه السلام حتى جاوزهم إلى سدرة المنتهى فبلغ من الارتفاع والعلو ما الله به عليم، وكلمه الله بلا واسطة، وأوحى إليه ما أوحى، وفرض عليه الصلوات الخمس، وكانت الصلاة أول ما فرضت خمسين صلاة، ولم يزل يتردد بين موسى وربه ويطلب من ربه التخفيف حتى خففها الله إلى خمس، ثم هبط ﷺ.

وفيها من المسائل العظيمة: إثبات صفة العلو لله جل وعلا.

صَلَّى بِمَكَّةٍ ثَلاثاً صَابِرَا
حَتَّى أتَاهُ الأمْرُ أنْ يُهَاجِرَا
إلى المَدِينَةِ التي بِهَا احْتَمَى
أَصحابُهُ الكِرامُ نِعْمَ الْمُحْتَمَى

ذكر في هذين البيتين أنه ﷺ بعد أن عرج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس صلى في مكة ثلاث سنين صابراً محتسباً يدعو إلى الله تعالى حتى أتاه أمر الله بأن يهاجر إلى المدينة مفارقاً للمشركين وأوطانهم؛ ليتمكن من إظهار دينه ودعوته، فهاجر إليها ﷺ.

والـهـجـرةُ انـتـقـالُ شَـخْـصٍ مُـسْـلِـمِ
مِنْ مَوْضِعِ الكفرِ البَغِيضِ الْمُظْلِمِ
إلـــى بِـــلادِ الأمـــنِ والإيـــمـــانِ
لِـيُـظْـهِـرَ الإسـلامَ بـاطْـمِـئْـنَـانِ

في هذين البيتين تعريف الهجرة بأنها الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ؛ ليتمكن المرء من إظهار دينه وأداء ما افترض الله عليه، وإنما سمي المهاجرون مهاجرين ؛ لأنهم هجروا ديارهم ومساكنهم إلى غيرها من البلاد التي لم يألفوها ولم ينشأُوا بها، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، والمهاجرة هي المصارمة والمقاطعة.

وفَـرْضُـهَـا بـاقٍ عَـلَـى الـعـبـادِ
إلـى قِـيَـامِ الْـخَـلْـقِ لـلـمَـعَـادِ
كَـمَـا أتـى فـي مُـحْـكَـمِ الـتـنـزِيـلِ
وفـي حـديـثِ الـصـادِقِ الـرسـولِ

في هذين البيتين بيان أن الهجرة فرضها باق على العباد من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام فكل مسلم لا يتمكن من إظهار دينه في بلد وجب عليه أن يهاجر منه إلى بلد يستطيع فيه إظهار

شعائر دينه، وهي باقية إلى أن تطلع الشمس من مغربها، معلوم ثبوتها بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة متوعد من تركها والدليل على وجوبها من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ومن السنة قوله ﷺ: **(لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)**[1].

لَـمَّـا اسْـتَـقَـرَّ الْـمُـصْـطَـفَـى بِـطَـيْـبَـةِ
أَتَـاهُ أَمْـرُ الـلـهِ بِـالـبَـقِـيَّـةِ
مِـنْ شِـرْعَـةِ الإلـهِ كَـالـصـيـامِ
وَالـحـجِّ والـزَّكـاةِ بِـانْـتِـظَـامِ
والأمـرِ بـالـمـعـروفِ والأذانِ
والـنـهـيِ عَـنْ نُـكْـرٍ وعَـنْ عِـصْـيَـانِ
وغَـيـرِ ذَا مِـنْ شِـرْعَـةِ الإسـلامِ
كَـالـبِـرِّ والإحـسـانِ لـلأرحـامِ

يذكر في هذه الأبيات أن النبي ﷺ لما استقر بالمدينة النبوية وفشا بها التوحيد وأصبحت دار إسلام فرضت عليه بقية شرائع

(١) ذكر ابن القيم رحمه الله هذا التعريف في إعلام الموقعين عن رب العالمين: ٢/ ٩٢-٩٣. تحقيق مشهور حسن سلمان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

الإسلام كالصيام والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأذان والجهاد، وغيرها من شرائع الإسلام.

أَمْضَى عَلَى هَذا مِنَ الزمانِ
عَشْراً يُغَذِّي نخلَةَ الإيْمَانِ
بالعِلْمِ والتَّوحيدِ والجِهَادِ
مُحَارِباً لِلكُفْرِ والإِلْحَادِ
حَتَّى أتاهُ الحقُّ واليقينُ
صلَّى عَلَيْهِ الخالقُ الْمُعِينُ

ذكر في هذه الأبيات أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة واستقر بها مكث فيها عشر سنين توحى إليه فيها الشرائع من الواجبات والمستحبات وبيان ما يضادها، وهو في هذه العشر يدعو إلى توحيد ربه ويعلم الناس أمور دينهم ويجاهد في سبيل الله لنشر دعوة التوحيد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً وبعد أن بلغ ما أرسل به توفاه الله إليه ﷺ.

مَضَى لِرَبِّهِ الكَريمِ البَارِي
مُوَرِّثاً لِصَحْبِهِ الأَبْرَارِ
دِيناً حَنِيفاً نَنْتَمِي إليهِ
لا خَيْرَ إلَّا دَلَّنَا عليهِ

ولَـمْ يَـكُـنْ مِـنْ شَـرٍّ الَّا حـذَّرَا
قِـرْبَـانَـه وَفِـعْـلَـهَ كُـلَّ الـوَرَى

يخبر في هذه الأبيات أنه ﷺ توفي وترك أمته على المحجة البيضاء مورثاً أمته دينه الحنيف، فهو ﷺ قد مات، ولكن دينه باق مؤيد محفوظ، وهو ما تضمنه الكتاب وصحيح السنة وتناقله أهل العلم من السلف الصالح ومن بعدهم وحفظوه في بطون الكتب وصدور الرجال.

وجاء من بعد السلف ممن أراد الله هدايته، فساروا على آثارهم واقتفوا سبيلهم فاجتهدوا في حفظ الدين والدفاع عنه، فهذا دينه ﷺ، لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه، فصلوات الله وسلامه عليه، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح لهذه الأمة.

وَذَلِـكَ الـخـيـرُ الَّـذِي دَعَـانَـا
لِـفِـعْـلِـهِ تَـوْحِـيـدُ مَـنْ هَـدَانـا
وكُـلُّ مَـا يُـحِـبُّـهُ الـكَـرِيـمُ
وَيَـرْتَـضِـيـهِ الـوَاسِـعُ الـعَـلِـيـمُ

في هذين البيتين بيان للخير الذي دل النبي ﷺ أمته عليه، وهو توحيد الله وكل شيء يحبه الله من أنواع الفرائض والفضائل التي يحبها الله ويرضاها كالإحسان إلى الخلق وبر الوالدين ونحو ذلك.

وما مِنَ الشُّرورِ عنهُ يَزْجُرُ
الشركُ باللهِ الذي لا يُغْفَرُ
وكُلُّ شَيْءٍ يَكْرَهُ الرَّحمنُ
ولَيْسَ يَرْضَى فِعْلَهُ الْمَنَّانُ

وفي هذين البيتين بيان للشر الذي حذر منه النبي ﷺ وهو الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب وأصل كل شر، وما يتبعه من الذنوب والمعاصي التي يكرهها الله ويأباها.

وَبَعْثُهُ للخلقِ أجمعينَا
إِنْساً وجِناً فاقْتَفِ اليقينَا
فَرْضٌ عَلَى الأنامِ أَنْ يُطَاعَا
فَلْيَلْزَمِ الْجَمِيعُ الاتِّبَاعَا

ذكر في هذين البيتين أن الله سبحانه ابتعث نبينا محمداً ﷺ إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم أحمرهم وأسودهم ذكرهم وأنثاهم حرهم وعبدهم وافترض الله تعالى طاعته على الثقلين الإنس والجن، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فواجب على الجميع أن يطيعوه ﷺ وهذا من شرفه ﷺ ومما اختصه الله به من سائر الأنبياء حيث جعله خاتم الأنبياء

وبعثه إلى الناس كافة، وكان النبي قبله يبعث إلى قومه خاصة، وهذا معلوم من الدين بالضرورة أنه ﷺ رسول إلى كل الثقلين وأن طاعته فرض على الجميع لا يماري في ذلك إلا معاند مكابر.

فالواجب على العباد محبته ﷺ، واتباع سنته، والدفاع عنها، وعدم الابتداع في دينه ﷺ فإن اتباعه ﷺ سبب لمحبة الله لعباده كما جاء في القرآن الكريم.

وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ الَّذِي

يَرْضَاهُ لِلأَنَامِ نِعْمَ مَا احْتُذِي

معنى البيت أنه ﷺ لم يمت حتى أكمل الله به الدين، وأتم النعمة على عباده المؤمنين، ولم يمت ﷺ حتى بين للأمة ما يصلح به أمر معاشها ومعادها، فلم يبق إلا الفهم والعمل، فالدين كامل ولله الحمد ولا مجال فيه للزيادة ولا للنقص، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فمن ابتدع في الإسلام فقد زعم أن الدين لم يكمل، أو أن الرسول لم يبلغ كل ما أنزل إليه من ربه، وهذا من أكبر الظلم وأعظم الكذب والافتراء على الله ورسوله ﷺ.

وَمَـوْتُـهُ حَـقٌّ كَـمَـا أَتَـانَـا
فِـي قَـوْلِ رَبِّـنَـا الَّـذِي اجْـتَـبَـانَـا

معنى البيت أن موته ﷺ حق كما أخبر الله في كتابه في غير ما موضع، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠].

وَالـنَّـاسُ إِنْ مَـاتُـوا سَـيُـبْـعَـثُـونَـا
وَبَـعْـدَ بَـعْـثِـهِـمْ يُـحَـاسَـبُـونَـا
يُـجْـزَوْنَ بِـالأَعْـمَـالِ مِـنْ خَـيْـرٍ وَشَـرْ
وَمَـنْ يُـكَـذِّبْ بِـالْـجَـزَا فَـقَـدْ كَـفَـرْ

معنى البيتين أن الناس بعد موتهم مبعوثون لا محالة وموقوفون أمام ربهم ومحاسبون على ما قدموا من الأعمال ومجزيون عليها: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأن من كذب بالبعث فهو كافر.

والدليل على ثبوت البعث وأنه حق لا مرية فيه قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طٰه: ٥٥].

والدليل على أن الناس بعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النّجْم: ٣١].

والدليل على كفر من كذب بالبعث قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التّغَابُن: ٧].

وأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الأَنْبِيَا
يُبَشِّرُونَ الصَّالِحِينَ الأَوْلِيَا
ويُنْذِرُونَ زُمْرَةَ الضَّلَالِ
عَذَابَ رَبِّ الْخَلْقِ ذِي الْجَلَالِ

يبين في هذين البيتين أن الله سبحانه أرسل جميع الرسل داعين الخلق إلى توحيد الله تعالى محذرين جميع الخلق من الشرك بالله ومبشرين من أجابهم إلى التوحيد بالثواب العظيم والأجر الجزيل، وينذرون أهل الكفر والضلال عذاب الله تعالى، وما يحل عليهم من سخط الله إن هم استمروا على كفرهم وعنادهم.

ولإرسال الرسل حكم عظيمة منها ـ وهو أهمها ـ إقامة الحجة على الخلق في تحقيق ما خلقوا من أجله وهو توحيد الله فبعد أن أرسل الله الرسل لم يبق لمن لقي الله مشركاً حجة يحتج بها على الله، لأن الرسل قد بلغوا البلاغ المبين، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥].

ومن الحكم كذلك رحمة الله بخلقه حيث لم يكلهم إلى عقولهم بل أرسل إليهم الرسل ليبينوا لهم ما يريد الله منهم.

وأعظم ما دعت إليه رسل الله هو توحيد الله وترك الشرك فهذا هو الأصل الذي بعثت من أجله الرسل، وأنزلت من أجله الكتب.

وَأَوَّلُ الـرُّسْـلِ إِلـى الْـعِـبَـادِ
نُـوحٌ هُـوَ الـشَّـكُـورُ مَـنْ يُـنَـادِي
لِـرَبِّـهِ فـي الـسِّـرِّ والـجِـهَـارِ
فـي ظُـلْـمَـةِ الـلـيـلِ وِفـي الـنِّـهَـارِ
وَآخِـرُ الـرُّسْـلِ نَـبِـيُّـنَـا الـوَفِـي
صَـلَّـى عَـلَـيْـهِ الـلـهُ كُـلَّـمَـا قُـفِـي

يبين في هذه الأبيات أن أول رسول أرسله الله هو نوح عليه السلام، وذلك أن بني آدم كانوا على دين أبيهم آدم من التوحيد، ثم اختلفوا وحدث الشرك في بني آدم بسبب الغلو في الصالحين، فأرسل الله إليهم نوحاً فهو أول رسول أرسله الله، وهو أول نذير عن الشرك، وهو من أولي العزم.

وآخر الرسل هو نبينا محمد ﷺ الذي ختم الله به الأنبياء تكرمة له، فلا نبي بعده ﷺ وكل دعوى للنبوة بعده فإنما هي

غي وهوى وكذب وافتراء، كما دلت على ذلك النصوص الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكل مدع للنبوة بعده فهو كافر بالله.

والدليل على أن أول الرسل نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النِّسَاء: ١٦٣].

والدليل على أن آخرهم محمد ﷺ قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزَاب: ٤٠].

وَكُلُّ أُمَّةٍ وَقَرْنٍ قَدْ خَلا
قَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيهِمْ مُرْسَلا
يَدْعُو إلى عِبادَةِ الرَّحمنِ
مُحَذِّراً لِزُمْرَةِ العِصْيَانِ
عِبادةَ الطَّاغُوتِ والشَّيْطَانِ
مُسْتَنْقِذاً لَهُمْ مِنَ النِّيرانِ

بعد أن بين أن أول الرسل نوح وآخرهم محمد ﷺ ذكر أنه ما من أمة من الأمم وجماعة من الجماعات، وطائفة من الطوائف إلا وأرسل الله إليهم رسولا يبين لهم ما يريد الله منهم من عبادة الله وحده والكفر بالطاغوت إقامة للحجة على الخلق، وإيضاحاً للمحجة، وتبييناً للناس.

والدليل على هذه المسألة العظيمة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

وهذا من رحمة الله بعباده حيث أرسل إليهم الرسل يهدونهم إلى الصراط المستقيم، وهو من عدله سبحانه وتعالى حيث أقام الحجة عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وكانت الأمم السابقة، كلما مات فيهم نبي خلفه آخر يقوم مقامه.

ولما كانت هذه الأمة لا نبي بعد نبيها قيض الله لها أئمة هدى، حفظ الله بهم دينه، وأقام بهم الحجة على خلقه، فهم وُرَّاث النبي ﷺ، والقائمون بأمره، الذابون عن دينه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، يهدون من ضل من الناس، ويقيمون ما اعوج من أفكارهم وأفهامهم، فهم من حجج الله على خلقه.

وأَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ
الكُفْرَ بالطَّاغُوتِ ذِي العِنادِ
وأنْ يَكُونُوا آمَنُوا باللهِ
وجَانَبُوا الذُّنوبَ والْمَنَاهِي

ذكر في هذين البيتين معنى عظيماً، وهو أن الله تعالى أوجب على عباده جميعهم في كتبه وعلى ألسنة رسله أوجب عليهم أن يكفروا بالطاغوت، ويؤمنوا بالله، وهذا الأصل العظيم

هو الذي من أجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار، وعلى هذا قامت السموات والأرض.

فمن حقق هذا المعنى فهو المستمسك بحبل الله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

والأدلة على ذلك كثيرة مشهورة لمن نور الله بصيرته، وهداه إلى معرفة الحق والإيمان.

عـنِ الإمَـامِ الـشَّـيْـخِ نَـجْـلِ الـقَـيِّـمِ
حَـبَـاهُ ربُّـنَـا جَـزِيـلَ الأنْـعُـمِ
تَـعـريـفُـهُ الـطَّـاغـوتَ وَهْـوَ كُـلُّ مـا
تـجـاوَزَ الـعَـبْـدُ بِـهِ حَـداً سَـمَـا
مِـنْ ظَـالِـمٍ مُـطَـاعٍ اوْ مَـعْـبُـودِ
أَوْ فَـاسِـقٍ مَـتْـبُـوعٍ اوْ مَـقْـصُـودِ

يذكر في هذه الأبيات تعريف الطاغوت ذلك التعريف الجامع المانع الذي ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أنه عرف الطاغوت بقوله: (**هو ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع**)[1].

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان: باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة: ص: ٥٦-٥٧، رقم الحديث٨٢.

فكل شيء يتجاوز به العبد حده الذي قدر له في الشرع يصير ذلك الشيء بهذه المجاوزة طاغوتا، سواء كان ذلك الشيء معبوداً من دون الله أو متبوعاً أو مطاعاً فمن عبد شيئاً سوى الله فقد صيره طاغوتاً ؛ لأنه تجاوز به حد العبودية إلى درجة الألوهية، لكن إن كان ذلك المعبود من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين الذين يتبرؤون ممن يعبدهم ولا يرضون بعبادة غير الله فلا يسمى أحد ممن عبد من هؤلاء طاغوتاً.

فكل ما سوى الله حده الذي حُدَّ له أن لا يُعبَد من دون الله، بل إن كان رسولاً أو نبياً فإنه يطاع فيما أمر به، ولا يصرف له شيء من خصائص الألوهية، وإن كان غيرهما فإن أمر بطاعة فإنه يطاع وإلا فلا، فمن أطاع غير الله في غير طاعة الله، فقد صيره طاغوتاً يعبد من دون الله، وهكذا في الاتباع وفي المحبة، وغير ذلك.

والمراد بالمعبود والمتبوع والمطاع هنا غير الصالحين، أما الصالحون كالملائكة والأنبياء والمؤمنين فهم وإن عبدوا أو تجاوز بهم أتباعهم حد الاتباع والطاعة فهم ليسوا طواغيت ؛ لأن هذا ليس عن علم منهم أو رضا، ولذلك سيتبرؤون يوم القيامة من هؤلاء الذين ألهوهم أو رفعوهم فوق منازلهم.

أما علماء السوء الذين يدعون الناس إلى البدع والضلال

ويزينون للناس الشرك بالله والانحراف عن السنة، فهؤلاء هم الطواغيت.

وهذا التعريف يعد قاعدة عظيمة ومنهاجاً واضحاً به يعرف المسلم تمييز الطاغوت من غيره.

وابن القيم هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف البديعة، والكتب النافعة، كان إماماً في العلم والزهد والورع مدافعاً عن التوحيد والسنة ناصراً لهما، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة رَحِمَهُ اللَّهُ، من تصانيفه: زاد المعاد، والصواعق المرسلة، ونونيته البديعة التي قطعت عروق شجرة التعطيل، وغير ذلك.

وهُمْ كَثِيرٌ خَمْسَةٌ رُؤُوسُهُمْ

أَوَّلُهُمْ إِبلِيسُ مَن يَسُوسُهُمْ

لما ذكر تعريف الطاغوت وتبين من خلال هذا الحد أن لفظ الطاغوت يقع على كثير من الأفراد في الخارج وأن هذه الأفراد لا تستوي في الاتصاف بهذا المعنى ناسب أن يذكر رؤوس الطواغيت الخمسة.

فأولهم: إبليس اللعين، فهو زعيم الطواغيت وداعيهم الأول أعاذنا الله والمسلمين من شره.

وكُـلُّ مَـعْـبُـودٍ سِـوَى الـرَّحْـمَـنِ
رَاضٍ بـذَاكَ فَـاسْـتَـمِـعْ بَـيَـانِـي

الثاني من رؤوسهم من عبد من دون الله وهو راض بذلك، وإن لم يدع إلى عبادة نفسه، فلا يشترط أن يدعو إلى عبادة نفسه، أو يأمر الناس بذلك، بل إذا علم أن الناس يصرفون إليه نوعاً من العبادة التي لا تصرف إلا لله، ورضي بذلك فهو طاغوت من الطواغيت.

ومَـنْ دَعَـا الـعِـبَـادَ نـحـوَ نَـفْـسِـهِ
دُونَ الإلـهِ فـابْـتَـعِـدْ مِـنْ رِجـسِـهِ

الثالث من دعا الناس إلى عبادة نفسه كفرعون ومشايخ الضلال الذين يزينون للناس أن يلتمسوا منهم البركات وقضاء الحاجات ويلتجئوا إليهم في الشدائد، فهؤلاء من كبار الطواغيت وهم كثير لا كثرهم الله.

ومَـنْ يَـكُ ادَّعَـى عُـلُـومَ الـغـيـبِ
فَـــذَاكَ كَـــافـــرٌ بِـــدُونِ ريـــبِ

الرابع من يدعى علم الغيب، وذلك كالكهان والمنجمين والذين يخطون في الأرض ويستعملون الودع وكثير من مشايخ الصوفية وأرباب الضلال الذين يزعمون أنهم يعلمون الغيب،

فهذا كله من الكفر بالله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النَّمل: ٦٥].

وكـلُّ حَـاكِـمٍ بِـغَـيـرِ مَـا نـزَلْ
مِـنْ عـنـدِ ربـنـا فَـخـطْـبُـهُ جـلَـلْ

الخامس من حكم بغير ما أنزل الله كمن يحكم بقوانين الجاهلية أو بشيء مخترع من عنده لم يأت به الشرع.

فالحكم بما أنزل الله من تحقيق توحيد الربوبية والألوهية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته وألوهيته وكمال ملكه وتصرفه، والله تعالى أمر الناس عند التنازع أن يتحاكموا إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ.

والدليل على وجوب الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، ووجوب التحاكم إلى الله وعدم التحاكم إلى غيره قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء: ٦٠].

والكفرُ بالطاغوتِ مَعْ أن يُسلِمَا
العَبْدُ للهِ الذي قدْ أَنعَمَا
هذا هُوَ الْمَعْنَى الذي احْتَوَاهُ
مَقَالُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

ذكر في هذين البيتين أن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هو معنى لا إله الله كما سبق ذلك واضحاً في الآية السابقة وغيرها مما سبق بيانه فلا إله إلا الله عبادة لله وكفر بما سواه.

إِذْ هِيَ رأسُ الأمرِ والصَّلاةُ
عَمُودُهُ كَمَا رَوَى الثِّقَاتُ
وذِرْوَةُ السَّنامِ في ذا الأمْرِ
جِهَادُ أهْلِ اللهِ أهْلَ الكُفْرِ

أي: أن لا إله إلا الله محمد رسول الله هي رأس الأمر، والمراد بالأمر الدين الذي بعث به محمد ﷺ، وهو الإسلام، فالمراد بالإسلام في الحديث التوحيد؛ فلا إله إلا الله هي رأس الأمر وهي الأصل الذي ينبني عليه هذا الدين، وهي شرط قبول العمل.

وعمود هذا الدين الذي يقوم عليه كقيام الفسطاط على عموده هو الصلاة، وفيه بيان منزلة الصلاة في الإسلام، وأنها العمود

الذي يقوم عليه هذا الدين، فالواجب على العبد المحافظة عليها، وعدم السهو عنها، فقد وردت أحاديث متعددة تدل على أن من تركها متعمداً فقد خرج من الملة منها قوله ﷺ: (**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**)[1]، وجاء عن عمر رضي الله عنه: (لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة)[2].

وذروة سنام هذا الدين، أي: أعلى ما فيه وأرفعه هو الجهاد في سبيل الله، وفي هذا دلالة على مكانة هذه الشعيرة العظيمة، وأنها من أفضل الأعمال بعد الفرائض، ومن أجلِّ الطاعات والقربات، إذا أُقيمت وفق الشروط والضوابط الشرعية وفق الله المسلمين لما يحبه ويرضاه، ونسأل الله أن يهدينا إلى طريق الحق والصواب.

وقوله: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) هو طرف من حديث معاذ بن جبل الطويل الذي أخرجه الترمذي[3] وذكره الإمام النووي رحمه الله في الأربعين النووية.

قَدِ انتَهَى نَظْمِي لِذِي الأُصُولِ
العِلْمِ بالإلهِ والرَّسُولِ

(١) أخرجه مالك في الموطأ: العمل فيمن غلبه الدم من جرح أو رعاف: ص: ٨١.
(٢) سنن الترمذي: أبواب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة: ٤/ ٥٦٧-٥٦٨، رقم الحديث: ٢٨٠٤.

وديـــنِـــهِ الإســـلامِ خـــيـــرِ ديـــنِ
فـاحْـفَـظْ مَـقَـالـي تَـحْـظَ بـالـيـقـيـنِ

وفي هذين البيتين بيان أن هذا النظم المبارك قد انتهى بعون الله وتوفيقه جل وعلا، وبيان أن هذا النظم اشتمل على أصل الدين ورأس هذا الأمر وهو معرفة الله سبحانه وتعالى، ومعرفة نبيه ﷺ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، وقد سبق غير مرة أن هذا هو أعظم الأصول، وأولاها بالعناية، وأن حاجة العباد إلى تحقيق هذا الأصل أشد من حاجتهم إلى ما يصلح أمر دنياهم من مطاعم ومشارب، فإن هذا هو غذاء الروح، ولا شك أن ما تحتاج إليه الروح أعظم شأنا مما يحتاج إليه البدن، فالواجب على العبد أن يعنى بهذه الأصول تعلماً وعملاً وتعليماً وصبراً على ما يناله في سبيل ذلك.

والْـحَـمْـدُ لـلـهِ عَـلَـى تـمـامِ
نَـظْـمِ الأصـولِ واضِـحَ الـنـظـامِ
وأفْـضَـلُ الـصَّـلاةِ والـسَّـلامِ
عَـلَـى الـنـبـيِّ أَكْـمَـلِ الأنَـامِ
وآلِـهِ وصَـحـبِـهِ الأطْـهَـارِ
مَـا اسْـتَـغْـفَـرَ الـعُـبَّـادُ بِـالأَسْـحَـارِ

وأَسْـأَلُ الـرَّحـمـنَ حُـسْـنَ الـنِّـيَّـةْ
وعِـيـشـةً هـنـيـئـةً مـرْضِـيَّـةْ

وفي هذه الأبيات ختام هذا النظم بحمد الله جل وعلا على ما أنعم به ويسر من نظم هذا الكتاب المبارك الذي نفع الله به أمما كثيرة من خلقه، وذلك لاشتماله على هذا الأصول العظيمة التي هي توحيد الله واتباع نبيه ﷺ ومعرفة دينه معرفة صحيحة، فالحمد لله أولاً وآخراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فأحمد الله مصلياً على النبي ﷺ وعلى آله وصحبه الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين سائلاً المولى أن يرزقنا حسن النية وإخلاص العمل لوجهه الكريم وأن يوفقنا لصالح العمل، ولاتباع سنة نبيه ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

مقدمة الناظم ٥
المنظومة ١١
المقدمة والأصل الأول ١٣
الأصل الثاني معرفة دين الإسلام بالأدلة ١٧
الأصل الثالث معرفة نبيكم ﷺ ١٩
شرح المنظومة ٢٥
المقدمة والأصل الأول ٣١
الأصل الثاني معرفة دين الإسلام بالأدلة ٧١
الأصل الثالث معرفة نبيكم ﷺ ٨٧